افتتاحية العـــدد

■ إبراهيم الحميد

تعد الرحلة وأدبها إحدى أقدم المعارف الانسانية التي أنجزها الإنسان العربي، فقد كانت الفتوحات الإسلامية وتوسع الحدود الجغرافية للبلاد المسلمة حافزا للكثير من المغامرين على خوض غمار الرحلة، منطلقين من هدفٍ سامٍ لرحلاتهم.. ألا وهو الوصول إلى مكة المكرمة، مهما كلف الأمر، لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة؛ وكان بعضهم يجعل من رحلته إلى مكة المكرمة، منطلقا إلى أماكن بعيدة عن موطنه، متحملا كل الصعاب والمشاق التي يكابدها الظاعن في ذلك الزمان؛ ولم تقف الرحلة عند هذا الهدف، بل تجاوزته إلى استكشاف العديد من الوجهات منذ بدايات القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي، ومن الكتب التي سطرها الرحالة العرب في توثيق رحلاتهم: كتاب البلدان لليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤هـ،ومروج الذهب للمسعودي، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل، وكتاب المسالك للبكري، وكتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي الذي أنجزه عام ٥٤٨هـ | ١١٥٤م في بلاط ملك صقلية روجر الثاني، وكتاب الاستبصار ومسالك الأبصار للعمري، وكتاب رحلة ابن بطوطة (تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، وكتاب العبر لابن خلدون.

وقد شهدت القرون المختلفة منذ عصر الإسلام ألوانا وأشكالا من الرحلات التي اختلفت طرقها ووجهاتها، إلا أن القاسم المشترك بينها هو الرغبة الأكيدة لدى مقترفيها في طلب العلم، والاستزادة في معرفة البشر وطبائع البلدان، وكان العديد من الرحالة يمثل نافذةً استشرفت آفاق المستقبل، وأوصلت صورا لم

تكن لتبلغنا اليوم عن أحوال الناس وحياتهم قبل مئات أو آلاف السنين، لولا هذا التوثيق الذي قام به أولئك الرحالة، مهما كان الاختلاف حول مقدار المصداقية والدقة في التدوين.

لقد كان ابن بطوطة أحد أولئك الرحالة الذين واجهوا حملات المعارضين، الذين لم يستوعبوا حجم الاختلاف الذي وجدوه في طبائع الناس، و صور الحياة التي يعيشون عليها في أماكن مختلفة من العالم؛ حتى أن العالم العربي الشهير ابن خلدون الذي عاصر حقبة ابن بطوطة، لم يستوعب ما كتبه ابن بطوطة.. وكان يرى أنه من نسج الخيال، لولا تدخل السلطان أبي عنان سلطان فاس، الذي أنصف ابن بطوطة، وشهد له من خلال تأكيده على أن الوصف الذي أورده لمصر، يتطابق مع الصورة التي رآها في رحلته عبر مصر إلى مكة المكرمة.

لقد كانت كتب الرحلة العربية تصور حال البلدان التي عبر بها أولئك الرحالون عبورا غير عابر، فقد كان الرحالة يساكن الناس و يعيش معهم ، وكان ابن بطوطة قاضيا في كثير من الممالك بالهند و جاوة أثناء مسيره إلى الصين، فقد مكث في تلك البلدان سنوات طويلة، سبر خلالها أغوارها، ووثقها في كتابه المعتبر قبل أكثر من ٧٠٠ سنة، وكان ذلك قبل سقوط الأندلس، وقبل بزوغ شمس الغرب، وقبل وصول الإنسان الأوربي إلى آسيا مستعمرا بأكثر من ٤٠٠ سنة، وكان كتاب ابن بطوطة وسيلة لمعرفة الكثير من نظم الحكم والادارة والحياة في تلك الحقبة الزمنية الماضية، ومنها اعتماد التصوير في الصين لزوار ملك الصين، والاستعمال المبكر للعملة الورقية فيها، و نظام الحكم في جاوة، والفلبين، وفيتنام، وأشكال البشر في تايلاند والبنغال والهند و غيرها من الغرائب و العجائب.

وإذا كان أدب الرحلة يوفر لنا نافذة نطل منها على التاريخ وسيرة المكان والإنسان في مواقع مختلفة من هذا العالم، فإن هذا الأدب وفر لنا أيضا مجالا تتداخل فيه الرواية التاريخية مع السرد، مقدماً مفهوماً متقدماً للحضارة التي عاشتها أمتنا في ماضيها الغابر، حيث الريادة التي سادت بها العالم في زمانها قرونا، وتكشف لنا مدى القاع الذي هوت إليه لاحقا حتى حاضرها اليوم..

منتدى الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري للدراسات السعودية

الإعلام.. اليوم عالم بلا حواجز

الغاط تحتضن المنتدى في دورته السابعة

بمشاركة إعلاميين وأكاديميين متخصصين ومثقفين

■ محمد صوانة*

نظمت مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية الدورة السابعة لمنتدى الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري للدراسات السعودية، في مركز الرحمانية الثقافي بمحافظة الغاط، بعنوان: «الإعلام اليوم عالم بلا حواجز» وذلك يوم السبت ٩ محرم ١٤٣٤هـ (٢٤ نوفمبر ٢٠١٢م). وشارك نخبة من العلماء والمتخصصين والمهتمين في مجال الإعلام من الجامعات السعودية وبعض الدول العربية الشقيقة، بحضور محافظ الغاط عبدالله الناصر السديري وجمع من أهالي الغاط، وحشد من الإعلاميين والمهتمين، ومجموعة من طلاب قسم الإعلام بجامعة الملك سعود. وقد ناقش المنتدى على مدار ثلاث جلسات عمل ثلاثة محاور شملت الإعلام الجديد عالم بلا حواجز، والإعلام العربي الأهلي (إعلام القطاع الخاص)، والإعلام الرسمي: التحديات المعاصرة.

وفي حفل المنتدى تحدث فيصل بن عبدالرحمن السديري رئيس مجلس إدارة مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، الذي أشار إلى أن هذا المنتدى هو أحد الأنشطة الدورية التي تقيمها المؤسسة، وتحرص من خلالها على تناول موضوعات معاصرة تهم الوطن، جنبا إلى جنب مع أنشطتها الأخرى التي تشمل مكتباتها العامة في كل من الجوف والغاط، وما يقدمه برنامج النشر ودعم الأبحاث والدراسات الميدانية؛ وهي أنشطة نفخر بها، ونسهم من خلالها في التنمية الثقافية والمعرفية في هذا الوطن الذي نعتز بانتمائنا إليه وبقيادته الحكيمة. وأشار إلى أن اختيار هيئة المنتدى لهذا العام علما سعوديا ليكون شخصية المنتدى المكرمة في هذه الدورة، جاء لكونه مثالاً في البذل والعطاء في



رئيس مجلس الإدارة فيصل بن عبدالرحمن السديري يتوسط د. عبدالرحمن الشبيلي والشيخ جميل الحجيلان

ما قدمه من خدمة لقطاع الإعلام السعودي إلى جانب عمله الدبلوماسي.

كما أشار في كلمته إلى المنتديات الستة السابقة التي نظمتها المؤسسة بالتناوب في كل من الجوف والغاط، وشملت موضوعات: الهيئات الخيرية السعودية، والأزمة المالية العالمية، والنظام القضائي في المملكة، والنظام الصحي، والإدارة المحلية والتنمية، وآثار المملكة إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

واستطرد السديري قائلا: إن هذه المؤسسة ثمرة من ثمار مؤسسها الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري، يرحمه الله، الذي أنشأها لتكون مؤسسة ثقافية غير ربحية، تسعى إلى خدمة الثقافة والمثقفين، وتنظم البرامج والأنشطة الثقافية، وتدعم البحوث والدراسات العلمية الميدانية الخاصة بقضايا تهم المجتمع المحلي، إضافة إلى برنامج النشر والإصدارات الذي صدر عنه حتى الآن نحو (١٢٥) إصدارا.. شملت الكتب المحكّمة والدوريات التي تصدرها المؤسسة، وتشرف عليها هيئة أكاديمية متخصصة تضم في عضويتها عدداً من أبناء الجوف والغاط.

وفي ختام كلمته شكر رئيس مجلس الإدارة كل مَن شارك في إقامة هذا المنتدى، كما شكر رُعاةَ المنتدى، وأعضاء هيئته على ما بذلوه من جهد كبير في تنظيم المنتدى وإنجاحه.

كما ألقى د. عبدالرحمن الشبيلي كلمة هيئة المنتدى، التي قدم من خلالها الشخصية المُكرّمة، مستعرضا سجل العطاء والإنجازات التي قدمها الشيخ جميل الحجيلان. وأشار إلى أن فترة الحجيلان شهدت تدشين إذاعة الرياض وافتتاح التلفزيون في سبع محطات، وتحوّل الصحافة من ملكية فردية إلى مؤسسات أهلية، كما شهد الإعلام الخارجي طفرة نوعية مكثفة قوامها الأفلام والكتب الإعلامية، وصارت المملكة قبلة لزيارة أبرز رجالات الصحافة العربية والأجنبية، وحظيت وسائل الإعلام بفرص غير مسبوقة من برامج التدريب التي وفّرت للشباب السعودي فرص التأهيل الفني لينافس الكفاءات الوافدة.

واستطرد قائلا إنه على الرغم من أن الشيخ الحجيلان أمضى نحو أربعين عاما في المجال الدبلوماسي بينما لم يقض في المقابل في الإعلام سوى ثماني سنوات ١٩٦٢-١٩٧٠م، لكن اسمه ارتبط ارتباطا وثيقا بالإعلام؛ إذ مارس العملية الإعلامية في فترة حرجة داخلياً وخارجياً، وأبدع في الزمن الصعب بما يستلزم دراسة سيرته والإفادة منها.

ثم ألقى الشيخ جميل الحجيلان (الشخصية المكرمة) كلمة أشار فيها إلى أن هذا المنتدى



الأستاذ عقل الضميري يلقي كلمة افتتاح الندوة

يعد وجهاً من وجوه الوفاء للأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري (الذي عرفه عن قرب)، والذي امتازت مسيرته بالفضائل والقيم، وكان بحق رجل دولة، وأحد بناة هذا الوطن.

كما قدَّر الشيخ الجحيلان للمنتدى، في انعقاده السنوي، حسنُ اختياره لمواضيع الحوار، لاقترابها من اهتمامات المواطن، وهموم الوطن، وموضوع هذا العام، «الإعلام اليوم عالم بلا حواجز» هو واحد من مواضيع السلطة. والحكومات ترى في إدارة شئون البلاد أمراً وقفاً عليها، لا تكشف من سرِّه إلا بالقدر الذي تراه، ولا وصاية لأحد غيرها عليه، والمنادون بالشفافية يرون في موقف السلطة هذا مصادرة لحق المواطن في أن يعرف كيف تدار شئونه.

وأشار الجحيلان إلى أن المعركة بين السلطة والمطالبين بالشفافية في الحكم في العالم العربي ظلت معركة متواصلة، عنيدة، إلى أن انهارت تلك الحواجز عبر عشرات السنين، من المواجهة بين إمساك السلطة بمفهومها الأناني بالحكم، ودعوة المفكرين إلى الشفافية، وانتصار الإعلام الوطني على مفاهيم الحكم المتشدد.

ثم تساءل في كلمته عن إعلامنا العربي فقال: لقد جاءت الفضائيات، وافرازات ثورة الاتصالات الحديثة من التويتر واليوتيوب والفيس بوك وما إليها من إبداعات تقنية مذهلة لتربك ما كان عليه الإعلام العربي من تواضع في التكوين والأداء، وكذلك، لتربك الحكومات، وهي ترى أن وسائلها التقليدية في الرقابة قد هزمتها وسائل أخرى لا حيلة في الرقابة عليها.

وأضاف أن مبادرات التحوّل في بعض الإعلام العربي، وقبول بعض الدول لتقديم بعض التنازلات، والتوسّع في ما قد تمنحه من حرية لوسائل الإعلام.. لم تأت طواعية عن قناعة، بل استجابة لحقائق جديدة لا تملك هذه الدول إلا الاعتراف بها والتعامل معها؛ فقد زالت الحواجز التي كانت تتحصّن بها وتلوذ خلفها دول كثيرة، وجاء إعلام آخر موازٍ، حر، طليق، يتحدى الدول في ما قد تعلنه أو تخفيه، ويذيع - في منأى عن رقابتها- ما يشاء من أخبار قد تكشف عورة من عورات الدولة، أو سوءة من سوءاتها، فتعجز الدولة عن احتواء تداعياتها!

واختتم الجحيلان كلمته بالشكر للشيخ فيصل بن عبدالرحمن السديري راعي المنتدى، ولإخوانه، على حسن ظنهم، واختياره لهذا التكريم، وهو سعيد بهذا التكريم معتز به، لأنه يأتي من مؤسسة تحمل اسم الراحل الكبير الأمير عبدالرحمن السديري، وتعمل لتحقيق ما بنى عليه حياته من عمل جليل وأهداف نبيلة.

شخصية المنتدى

اختارت هيئة المنتدى لهذا العام معالي الشيخ جميل بن إبراهيم الحجيلان شخصية المنتدى في دورته السابعة؛ نظراً لما قدمه خلال مسيرته من إسهامات عديدة ومتميزة للإعلام في المملكة. والحجيلان يعد بحق عميد الإعلام في المملكة العربية السعودية؛ إذ كان أول وزير يتبوأ منصب وزارة الإعلام بالمملكة في مارس عام ١٩٦٢م. أشرف الحجيلان على إقامة شبكات الإذاعة



الأستاذ صالح القلاب ود. عبد الرحمن العناد ود. أسامة النصار ود. محمد شومان في الجلسة الأولى

والتلفزيون، وعمل على تطوير العمل الإعلامي، محققاً إنجازات كبيرة. ثم عُين وزيراً للصحة، ثم سفيراً للمملكة في ألمانيا وفرنسا. كما عمل أميناً عاماً لمجلس التعاون الخليجي، وكان عمله خلال تلك المهمّة موضع تقدير القادة والمسؤولين، وقد حصل خلالها على أوسمة رفيعة. تقاعد عام ٢٠٠٢م.

فعاليات ندوة المنتدى

وفي بداية ندوة المنتدى، ألقى الأستاذ عقل الضميري مدير عام المؤسسة كلمة رحب فيها بالمشاركين والضيوف. وقال إن اختيار موضوع المنتدى جاء للأهمية التي يمثلها الإعلام في الحياة وتأثيره المباشر على الناس والدول وعلاقاتها وأمنها واقتصادها ومستقبلها؛ إذ لم يعد الإعلام كلاماً عابراً، بل هو قوة حقيقية يبني ويسوّق ويحفّز ويدافع ويوضح، وهو أيضاً يهاجم وقد يشوّه ويدمر ويؤذي ويضر.

وأشار الضميري إلى أن أوراق العمل تسلط الضوء على الإعلام من عدة محاور يقدمها مختصون ذوو خبرة عالية في الإعلام، نشكرهم ونقدر لهم مشاركتهم في أعمال هذا المنتدى الذي يمثل إيمان المؤسسة الحاضنة مؤسسة عبدالرحمن السديري لدورها في تنمية المجتمع، والتي تُسخر كل ولا أقول بعض مواردها للمسؤولية الثقافية منذ نشأتها قبل ثلاثين عاماً؛ هذه المسؤولية وإن كانت بنسب مختلفة لدى المؤسسات المماثلة الأخرى، أصبحت علامة على ارتباط المؤسسات بمجتمعها، واستشعار همومه واهتماماته والإسهام بدور تنموي ملموس يفيد الجميع.

الجلسة الأولى

ترأس الجلسة د. عبدالرحمن العناد أستاذ الإعلام بجامعة الملك سعود

الورقة الأولى
«الإعلام والمتغيرات السياسية والإقليمية»

قدمها د. محمد شومان من جامعة عين شمس في مصر. وجاء فيها: إنه تبنّى عام ٢٠٠٠م فرضية وجود نظام إعلامي عربي مهدد بتحديات عولمة الإعلام وتطور تكنولوجيا الاتصال، واندماج الإعلام في الترفيه والمعلوماتية والثقافة، مع التوجّه المتسارع نحو تسليع الثقافة، ونمو دور الإعلام الخاص المستقل عن الدول. وقصد بذلك أن تعدد النظم الإعلامية العربية وتنوّعها، سواء فيما يتعلق بأنماط ملكيتها والمضامين المقدمة ومدى تبعيتها للنظم السياسية الحاكمة في كل قُطر عربي، فضلاً عن مدى تطور كل منها مهنياً وتكنولوجياً، فإنها لا تمنع من التسليم بأن النظم والممارسات الإعلامية على المستوى الوطني (القُطري) و(العربي القومي) تشكل فيما بينها

نظاماً فرعياً ضمن النظام الإقليمي العربي. ويتسم النظام الإعلامي العربي باستقلاله وتنامي قدراته المادية والمعنوية (الرمزية)، وتوسطه في الوقت ذاته دائرة الفعل السياسي والفعل الثقافي للنظام الإقليمي العربي.

وقال: يمكن تحديد ستة فاعلين رئيسين في النظام الإعلامي العربي، هم: الدولة، ومؤسسات القطاع الخاص، ومنظمات العمل العربي المشترك، وفعاليات المجتمع المدني، والمواطن الإعلامي أو الصحفي، والإعلام الأجنبي الناطق بالعربية، مع ملاحظة ضعف دور الفاعلين الثالث والرابع، وزيادة دور وتأثير الشركات متعددة الجنسية ووسائل الإعلام الأجنبية الناطقة باللغة العربية في النظام الإعلامي العربي؛ نتيجة العولمة والتطورات الجيوسياسية، بعد احتلال العراق واندلاع ثورات الربيع العربي.

كما أنّ تطور تكنولوجيا الاتصال والإنترنت وانتشار الإعلام الجديد وشبكات التواصل الاجتماعي قد تجاوزت قدرة الأنظمة العربية والنظام الإعلامي العربي على احتواء آثار عولمة الإعلام؛ ومن ثم، تعرض النظام الإعلامي العربي لتحولين مهمين:

الأول: نجاح الشباب العربي في الدعوة للثورة، والحشد الافتراضي والانتقال به إلى أرض الواقع الفعلي. وبرز المواطن الإعلامي العربي (المواطن الشبكي) كفاعل ضمن الفاعلين في النظام الإعلامي العربي، يتسم بدرجة أكبر من الاستقلال والقدرة على الدمج بين الفعل الاتصالي الافتراضي والواقعي.

والثاني: تنامي حضور وتأثير الإعلام الناطق بالعربية كفاعل جديد، وهو ما يدعم التوجّه نحو نهاية النظام الإعلامي العربي، في سياق الاتجاه أيضاً نحو أفول النظام الإقليمي العربي. وهنا، تتضح حساسية الفضاء الإعلامي، وسرعة استجابته للتحولات في النظام الإقليمي العربي، وربما إسهامه في الأحداث، والإسراع بهذا التحوّل.

الورقة الثانية
«الصحافة ووسائل الإعلام الحديثة»

قدمها د. أسامة النصار رئيس قسم الإعلام بجامعة الملك سعود، استعرض فيها أبرز المراحل التي شهدتها الصحافة، منذ عصر الطباعة وإلى وقتنا الحالي، الذي أسهمت فيه التقنية والإنترنت بشكل خاص، ووسائل التواصل الاجتماعي، سعياً منها للتعرف على أبرز المتغيرات والتأثيرات التي طالت هذه المهنة وأساليب العمل فيها، سواء كان على صعيد المؤسسة أم الصحافي الممارس لهذه المهنة.

كما استعرض النصار في ورقته أبرز التأثيرات التي أحدثها الإعلام الجديد أو المعاصر على الصحافة، وقراءة تأثيراتها المحتملة على الواقع الإعلامي الحالي.

الورقة الثالثة
«الإعلام في زمن الخصخصة»

قدمها وزير الإعلام الأردني الأسبق، الأستاذ صالح القلاب، وتساءل فيها: هل انتهى الإعلام الرسمي بعد أن بات غير قادر على القيام بوظيفته، وبعد أن أصبح يغرّد في واد، والناس المعنيون يتابعون همومهم ويواجهون إشكالاتهم ومشاكلهم، في واد آخر؟ لا أتحدث لا عن الوسائل ولا عن «التقنيات»، سواء القديمة أم المتطورة، ولا عن الكفاءات الإعلامية البشرية، وإنما عن «المحتوى».. إن المقصود هو الرسالة التي تبثها الوسيلة الإعلامية الرسمية الحكومية، ومدى تأثيرها على «المُتلقي»، هذا إنّ بقي هناك متلقون لما يبثه الإعلام الرسمي الحكومي.

وقال القلاب لعلنا نتفق على أن الإعلام الرسمي (الحكومي) بأساليبه ورسائله القديمة المملّة والمكررة، وبمحتواه، عموماً، وطريقته التي أصبحت خارج إطار العصر، لم يعد قادراً على خدمة الذين يقفون خلفه من أنظمة وحكومات، في ظل كل هذا الانفجار الإلكتروني، وفي ظل هذه الثورة الإعلامية المعاصرة؛ بل إنه غدا قاصراً عن إيصال وجهة نظر هذه الأنظمة والحكومات إلى المستهدفين، كما بات مولِّداً للبطالة المقنّعة، ويشكل عبئاً ثقيلاً على أصحابه، بعدما أصبح «الريموت كونترول» وسيلة سهلة للهروب منه، والبحث بسرعة عن البديل الموثوق والمحايد أو شبه المحايد، الذي يركز على الحقائق، ويبتعد بقدر الإمكان عن الترويج المملّ.

وخلص القلاب في ورقته إلى أنه لا بد للحكومات بشأن قطاع الإعلام من الخصخصة، أو شبه الخصخصة على الأقل، ولا داعي لإضاعة الوقت والأموال والجهود في «العزف على رباب لم تعد ألحانه تطرب الناس»!

الجلسة الثانية

وهي محاضرة للدكتور عبدالرحمن الشبيلي بعنوان: أزمة الإعلام العربي الرسمي، نقتطف منها:

- معظم الأجهزة الرسمية تمارس عملها اليوم بعقلية الماضي مرتديةً ثوب الحاضر وتقنيته، ومن ثَمّ، فإن التطوّر الحقيقي لن يتحقق إلا بتجديد الفكر وتغيير الأساليب وتحريك مياهه الراكدة، إلى جانب تحديث الأجهزة وإقامة المنشآت؛ وعندما يستشعر العنوان وجود أزمة فإنه يعني التسليم بوجود خلل وقصور، مع الاعتراف بوجود إيجابيّات.
- لقد أثبتت نماذج مُعاشة أن التأثير لا يتأتّى



جانب من الحضور

بالضرورة مع المقرّات الزاهية أو بتحديث المعدات، وأن تضخيم الكوادر لم يعد المعادلة الأهم في التفوّق، بل لعله يصبح أحياناً عبئاً على عمليّات التطوير.

- إن كثرة التلويح بخصوصية المجتمع وثوابته، والمبالغة في تقدير العناصر الإيجابية في المجتمع أو في إعلام أي دولة، تُشكّلان أحياناً أعذاراً للإبقاء على الحالة الراهنة وأسباباً للإحجام عن التغيير، ولتخدير العزائم عن التفكير في الإصلاح.
- لقد نجح القطاع الأهلي الخاص، أفراداً وشركات، وبمباركة من الدولة ودعمها، في اقتحام عالم الإعلام الإخباري والترفيهي والرياضي والثقافي في الخارج؛ وأسس إمبراطوريات عملاقة، أسهمت في تخفيف العبء على وسائل الإعلام الرسمية، وشارك بنصيب وافر في دعم جهود إعلامنا الخارجي، لكن نجاحه هذا هو شهادة إثبات على عدم فاعلية إعلامنا الرسمي، ودليل على قصوره وضعفه؛ وكان الأحرى بنا، أن نبحث في أسباب ذلك، وأن نستفيد من تجربة إعلامنا المهاجر، لتعزيز قدرات وسائل الإعلام الوطنية، بل الأحرى أن نسعى



الأستاذ منير عطا الله ود. محمد الحيزان ود. علي دبكل العنزي ود. أحمد عبدالملك

لتوطينه وإنهاء هجرته، في وقت يعرف الجميع انتماءه إلى هذه البلاد.

- ما أحوج الإعلام العربي اليوم في كل دولة، إلى غرف نقاهة للتفكير، مفتوحة النوافذ، للتأمل في استراتيجية شاملة، توزن فيها الأمور، وتقاس فيها جرعات الحرية وهوامش النقد، وتترجم فيها السياسات الإعلامية إلى حروف وكلمات وصور، وتدرس فيها أسباب تفوّق الناجحين، وتراقب فيها النماذج والصيغ المبتكرة التي تناسبنا، بعيداً عن الإثارة والصخب والغوغائية، وتؤخذ فيها المبادرات، قبل أن يأتي يوم نُصنّف فيه في عداد التخلف الإعلامي.

- لقد بلغ الإعلام الرسمي العربي بكل وسائله ووزاراته، ومنذ نشأة معظمها، مرحلة متقدمة من النضج العمري بما يجعله يرتفع عن التجارب والتنازلات، وألا يرتضي من الاحتراف بأقل من الكمال.

واختتم محاضرته بدعوة مخلصة لوضع نظام إعلامي سعودي جديد، يأخذ في الحسبان أصالة الماضي وقيمه، ولغة إعلام الحاضر والمستقبل وإبداع الآلة وابتكار العقل، أما ما لم يدركه الوقت في هذا المقام فإن له مكاناً آخر، بإذن الله.

الجلسة الثالثة

أدارها د. محمد الحيزان، عضو هيئة التدريس بكلية الإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

الورقة الأولى

«الإعلام الورقي في مواجهة الإعلام الإلكتروني»

تحدث فيها د. علي بن دبكل العنزي، فقال لا شك أن الصحافة الورقية تواجه ضغطاً قوياً من الصحافة الإلكترونية؛ بل إنه تحوّل إلى تهديد لوجود الصحافة الورقية وكينونتها، ويتابع الجميع عشرات بل مئات الصحف الورقية وهي تغلق أبوابها وتوقف صدورها؛ ما يؤكد للمراقبين أن أيام الصحف الورقية أصبحت محدودة، أو بالأحرى محدودة جداً، مع الاختلاف من مكان إلى آخر في دول العالم. وتناول د. العنزي في ورقته مستقبل الصحافة الورقية في ظل الوضع القائم، والمعطيات التي تؤثر في مستقبل الصحافتين الورقية والإلكترونية، وفق محاور أربعة هي: تاريخ الصحافة الإلكترونية وبداياتها، ومفهومها وأنواعها؛ وأسباب ازدهار الصحافة الإلكترونية؛ وتراجع الصحافة الورقية؛ والعامل الاقتصادي وأهميته في بروز الصحافة الإلكترونية. كما قدم في ورقته دلائل وأمثلة، لها علاقة مباشرة في موضوع مستقبل الصحافة الورقية في ظل بروز



رئيس مجلس الإدارة يكرِّم شخصية المنتدى الشيخ جميل الحجيلان

الصحافة الإلكترونية.

الورقة الثانية

«الرقابة وعصر التطورات التكنولوجية في الإعلام»

تحدث فيها د. أحمد عبدالملك، الأكاديمي بجامعة قطر والمستشار بوزارة الإعلام القطرية، مؤكداً أن الإنجازات العلمية في وسائل الإعلام قد تلاحقت في عصرنا الحاضر تقنياً (Hardware)، واتسعت مساحة انتقال المعلومة (Software) لتعبر الحدود الجغرافية؛ الأمر الذي أسقط كل الحواجز الرقابية، وحتّم تغيير الرؤى الرسمية لدور وسائل الإعلام، واتساع مساحة حرية التعبير، وتجاوز الرؤى الضيقة بالتعامل مع حالة تدفّق المعلومات في العالم. واستعرض د. عبدالملك شكل ومحددات هذه التطورات، وأثرها على الدور المهني لوسائل الإعلام.

الورقة الثالثة

«الرقابة في زمن العولمة»

تحدث فيها الكاتب والصحفي المشهور سمير عطا الله، فقال: لقد بدأت علاقتي برمتها بالإعلام العربي من خلال الشيخ جميل الحجيلان، وهو رجل في مقام الريادة، في أي منصب تبوأه، وفي أي مسؤولية تولاها؛ إعلاماً، ودبلوماسية، وإدارة إقليمية (كما في أمانة مجلس التعاون الخليجي).

كانت فلسفةُ جميل الحجيلان، وظلَّت، في الإعلام وفي الدبلوماسية وفي السياسة، بسيطة ومباشرة: لماذا أخوض حرباً محكومة بالمصالحة ذات يوم؟ لماذا لا أوفّر على بلدي الخسائر التي ستقع على الطريق؟

وعندما كانت السعودية تمارس الرقابة على إعلامها، كانت متفردة فيما يخص سواها. لم تشأ أن تكون جزءاً من عالم عربي تدب به الصحافة إلى الاضطراب والفوضى. وكان الملك فيصل، رحمه الله، يتابع حروب الصحافة اللبنانية ويقلق، وقد كرر أمامي القول: ماذا تفعلون ببلدكم؟ أما منكم مَن يقدر أنه شرفة هذه الأمة؟

واستطرد قائلاً: الرقابة شيء غير مُستحب. إنها نقيض للرغبة في المعرفة. لكنها مثلُ كلِّ شيء آخر، عادياً أو عظيماً، إدارة أولاً.

وفي نهاية كل جلسة شهدت الندوة حواراً مثمراً بين الجمهور والمشاركين تناولوا فيه مختلف القضايا المطروحة في أوراق العمل. ومن المنتظر أن يصدر عن الجهة المنظمة، مؤسسة عبدالرحمن السديري في وقت لاحق كتاب يضم جميع أوراق العمل والمداولات التي شارك بها الجمهور.

على هامش المنتدى

الورق.. طريق الإبل



■ عبدالرحمن بن عبدالكريم المفرّج

في اجتماع بمؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية بتاريخ ٠٨/ ١١/ ٢٠١٢م وفي مركز الرحمانية الثقافي - بمحافظة الغاط، ألقى معالي الدكتور عبدالواحد الحميد الضوء الكاشف على نشاطات وإنجازات هيئة النشر في المؤسسة، وأفاض وخلص إلى أن جميع الإصدارات الجديدة أصبحت على موقع المؤسسة، وأنه يمكن متابعتها وقراءتها على الشاشات المُضاءة في الحواسيب والأجهزة المحمولة الذكية، وبخاصة أن البث والنشر الرقمي (الديجيتال) قد تسيّد الموقف.

استأذنت طالباً الحديث فأُذنت، وقلت متباسطاً: وأنا الأمي الرقمي أرى أن النشر بالطريقة التقليدية أفلَ، وأن الورق في طريقه للانقراض؛ وتساءلت وأنا أدرك ضخامة المهمة، ولماذا لا نحوّل جميع مقتنيات مكتبات المؤسسة في الغاط والجوف إلى مكتبات إلكترونية؟

التقط الحديث الأمير فيصل بن عبدالرحمن السديري رئيس مجلس إدارة مؤسسة عبدالرحمن السديري، وقال ممازحاً: لكنني أنا أحول النص الرقمي إلى منشور ورقي.. فأضحك بمزحته الحضور. ثم ثنّى العضو المنتدب الدكتور زياد بن عبدالرحمن السديري وقال: للمهمة جوانب عديدة، منها ما يتعلق بحقوق الطبع والنشر، وأخرى بحقوق مالية وقانونية ليست بالسهلة، ومرَّ الأمر واستمر الحديث.

وفي صبيحة اليوم التالي انعقد منتدى الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري للدراسات السعودية في دورته السابعة – في الغاط بتاريخ ٩/١١/ ٢٠١٣م - الإعلام.. اليوم عالم بلا حواجز. وكانت الورقة الأولى في الجلسة الثانية :الإعلام الورقي في مواجهة الإعلام الإلكتروني، والمتحدث فيها الدكتور علي بن دبكل العنزي، ولم يكن لي علمٌ بمضمونها إلا بعد أن بدأ حديثه. فقال في معرض الحديث: إن بعض الصحف تحوّلت إلى النشر الإلكتروني كلياً، وإن الأخرى على الطريق. وذكر أمثلة عالمية ومحلية، وأكد أن النشر الورقي منتهٍ لا محالة ، فهي مسألة وقت فقط. لكنه، في رده على المحاورين ممن فهموا منه أنه يقصد انتهاء النشر الورقي، أخذ خط رجعة وقال: إن النشر في الصحف يجري بالوسيلتين معاً.

ورده هذا أعاد ذاكرتي إلى طرح البارحة في لقاء الجمعية العامة بالمؤسسة، وأذكى لدي تداعي المعاني، وقد تصورت أطفالنا وهم يلعبون في الآيبادات، وأجهزة الهواتف المحمولة الذكية، والحواسيب الصغيرة، ويلهون بها ويمررونها بين أيديهم كما مرّ أطفال امرئ القيس خذاريفهم المثقبة.

ورأيتُ أنهُ بعد عقد من الزمان أو ما يزيد قليلاً ستكون شاشات الأجهزة الذكية الكاتبة المُضاءة تلك، قد بدأت تُقصي الورقَ كما أقصى الورقُ سابقاته من الرق وألواح الطين والخشب، وسوف يصعب على أطفال اليوم -رجال الغد- التعامل مع الورق وتصفيفه وحفظه في الملفات والأضابير كما نفعل به، بل قد يخشون مسّه رغم ملاسته كي لا يجرح أناملهم الناعمة.

ما أشبه الليلة بالبارحة، ومَن شابه أباه فما ظلم!

فهاهم أطفال السبعينيات من القرن الهجري الماضي وكهول اليوم، ممن أخذتهم المدنّية يخشون الاقتراب من الإبل حُمر النعم.. وهي التي كانت جنوبها وأرقابها الأحضان والمنامات الدافئة شتاءً لآبائهم وأجدادهم، وأياديها المخدات الطرية لنومهم صيفاً، وقد كانت الإبل تعمر صحون منازلهم.. لكنها اليوم هي القصيّة، وهي أبعد ما يكون عن معاشهم اليومي، حتى يصعب عليهم التمييز بين رُغائها وحنينها، والمعضلة الكبرى معرفة أسمائها طبقاً لأعمارها أو ألوانها.

ولا غرابة لدي إن أقصى النشرُ الإلكتروني النشرَ الورقيّ كما أقصت السيارةُ والطيارةُ حمرَ النِعَم..!! وأنَّ الورق سائرٌ على طريق الإبل إلى الإقصاء، لكنه.. وللمفارقة قد تزداد قيمته بحكم ما يجري من مزايدات على مزاين الإبل، فاحفظوا أوراقكم، فقد تكون كنوزاً لأحفادكم. وإن غداً لناظره قريب، وتلك سُنَّةُ الله في خلقه.



أدب الرحلات (النشأة والتاريخ)

■ د. محمود عبدالحافظ - جامعة الجوف

هي منبع المعرفة لشتيت من العلوم الإنسانية، إذ يجد دارس الأدب والمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع وعالم الاقتصاد وكثير غيرهم ضالته فيها.. إنها الرحلة، ذلك السجل الحقيقي لمختلف مظاهر الحياة.

هكذا كان حدها في المعاجم العربية: الترحيل والارتحال؛ فيقال رحل الرجل إذا سار، فالرحلة هنا بمعنى السير والضرب في الأرض، وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، وعليه فإن الترحل والارتحال والانتقال هو الرحلة، والرحلة اسم الارتحال.

و من هذا المعنى، يتضح أن الرحلة قديمة قِدَم الإنسان ذاته، وقد لعبت دورًا كبيرًا في الاكتشاف الجغرافي، وبالأهمية نفسها كانت جسرًا للتواصل بين الشعوب وتبادل المعرفة قبل التقعيد التاريخي؛ فقد أحدثت التناسل بين اللغات والعادات والتقاليد، وقد عدها بعض العلماء - أعني الرحلة - أنها وضعت الجذور الأولى لمادة الإثنوجرافيا، التي تشكل بدورها قاعدة مهمة للمقارنة بين النظم الاجتماعية لدى البشر.

لقد أكد الباحث الفرنسي «مودي» علاقة الرحلة بالإثنوجرافيا عندما ذكر أن الرحلة التي قام بها القدماء المصريون عام ١٤٩٣ قبل الميلاد، تعد من أقدم الرحلات التجارية والإثنوجرافية على الإطلاق؛ ذلك حين أبحر في النيل تجاه جنوب مصر أسطولاً مكونًا من خمسة مراكب، وعلى متن كل مركب واحد وثلاثون فردًا، بهدف تسويق بضائعهم النفيسة من العطور والبخور وغيرها. لقد نتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين

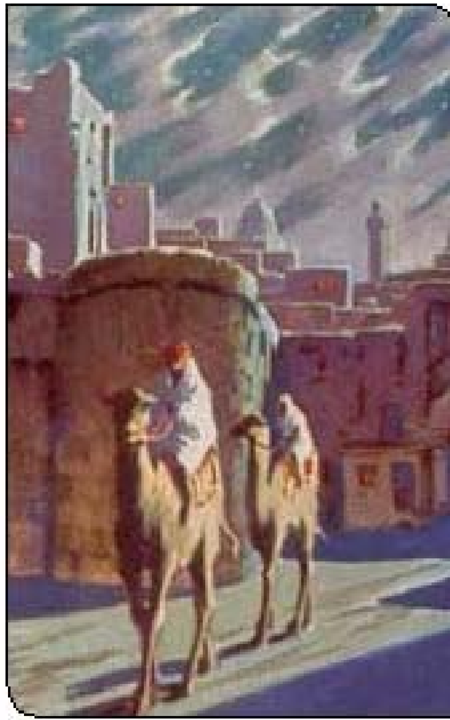
القدماء بأقزام أفريقيا، وقد صورت النقوش الفرعونية في معبد الدير البحري تطور علاقة المصريين بأهل هذه البلاد، فأبرزت استقبال ملك وملكة بلاد «بونت» (الصومال حاليًا) لمبعوث مصري، وأوضحت النقوش أيضًا بعض تفاصيل الصفات الجسمية لتلك الشعوب من تراكم السمنة بإفراط في مواضع بعينها من الجسد.

وجاءت المادة الوصفية للرحلة أيضًا في كتابات الإغريق، مثل كتابة الشاعر الشهير «هوميروس» صاحب «الإلياذة والأوديسة» الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، وأيضًا كتابات «هيرودتس» الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد؛ فقد دوَّن في كتابه «التواريخ» كثيرًا من التاريخ الإنساني عن حوالي خمسين شعبًا، من خلال رحلاته وقراءاته.. إلى جانب وصفه الدقيق للحرب التي دارت بين الفرس والإغريق في القرن السادس قبل الميلاد، فوصف مصر وصفًا دقيقًا، وقدم وصفًا دقيقًا أيضًا لقبائل البدو في ليبيا... إلخ.

ورغم أن هذه الكتابات بالطبع لا يمكن أن تنعت بالأدب على أي مستوى من المستويات، إلا أنها تعد تأصيلاً لقدم هذا النوع من الكتابة، وتأكيدًا لما جاء في صدر حديثي عن أن الرحلة قديمة قدم الإنسان، ولها فضل وتبر على عصبة العلوم الإنسانية.

الرحلة في التراث العربي وتطورها التاريخي

وردت الرحلة في القرآن الكريم والسنة



النبوية، فكانت أولى الرحلات الثابتة لدينا في القرآن الكريم باللفظ والدلالة هي رحلة قريش التجارية السنوية (رحلة الشتاء والصيف)، انطلاقًا من مكة إلى الشام واليمن. أما في السُّنَّة النبوية، فقد روي عنه قوله - صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كان هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كان هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته لما هاجر إليه» (أخرجه البخاري).

وتأتي في هذا السياق هجرتا المسلمين إلى الحبشة ويثرب في السنوات الأولى من بعثة النبي، صلى الله عليه وسلم.

بدأ تأمل العرب للعالم من حولهم من خلال أسفار التجارة والفتوحات الإسلامية؛

إذ وفر لهم ذلك الاحتكاك الحضاري مع غيرهم من الأجناس الأخرى، وعندما سطع نجم الدولة الإسلامية انبرت مظاهر التلاقح الحضاري تتوالى، وكان أهمها حركة الترجمة، فبدأ المترجمون بترجمة كتب «الأقاليم السبعة» عن الفرس، و(المجسطي) أو الجغرافيا عن بطليموس اليوناني، كما أولوا الاهتمام بالحسابات الفلكية، وانفتح الباب على مصراعيه أمام علوم الفرس والهنود. وأسهمت هذه المجهودات - بلا شك - في تطوير علم الرحلة عند العرب المسلمين، عبر مراحل متتابعة لعبت فيها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها الدولة العربية الإسلامية دورًا بارزًا.

يتفق جمهور الباحثين في الرحلة على أن عصر النشأة والتطور استمر إلى حدود القرن الثالث للهجرة، إذ كانت مجهودات العرب فيه موجهة إلى الآفاق عن طريق البحر، بحكم أن الفتوحات التي تمت إبان هذا العصر قد جعلت الدولة محاطة به من ثلاث جهات، وكانت الرحلات ذات طبيعة تجارية اقتصادية أكثر مما ترمي إلى التعرف على البلدان الأخرى، ويفسر ذلك أن هذه الفترة لم تخلف مؤلفات تؤرخ لهذه الرحلات، بحكم طبيعتها؛ غير أنها فتحت أبواب المغامرة والرحلة على مصراعيها في وجه العرب. وتجلت خلال القرن الثالث للهجرة أولى الشذرات المعرفية عن الرحلة انطلاقًا من رحلة «سلام الترجمان» إلى بلاد الصين، ليشاهد السد الذي شيده الإسكندر الأكبر في بلاد يأجوج ومأجوج بإفادة من الخليفة الواثق (٨٤٢م - ٨٤٦م).

وقام أيضًا الرحالة «ابن وهب القرشي» إلى الصين، إذ التقى بسلطان البلاد الذي عرض عليه صورًا لأنبياء وضمنهم صورة للرسول، صلى الله عليه وسلم. كما قام «سليمان البصري»، أحد تجار العراق برحلات عبر المحيط الهندي والمحيط الهادي إلى بلاد الصين والهند، وقد دوّن هذا التاجر رحلته سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م في حجم كتاب يصف فيه طريقه إلى الصين عبر البحار. ويعد ذلك أقدم نتاج عربي في مجال الرحلة البحرية. وقد توالى بعد ذلك رحالة آخرون، أهمهم: «محمد بن موسى المنجم، واليعقوبي، وابن خرداذبة وابن رستة وابن الفقيه».

ونشطت في القرن الرابع الهجري البعثات الدينية والدبلوماسية إلى الممالك المجاورة للإمبراطورية العربية الإسلامية، مثل بعثة «ابن فضلان» إلى ملك البلغار عام ٣٠٩هـ/ ٩٢١م. وظهر العديد من مشاهير الرحالة في هذا العصر، أهمهم: (أبو زيد البلخي، قدامة ابن جعفر، المسعودي، ابن حوقل، أبو دلف مسعر بن مهلهل، المقدسي، المهلبي، بزرك بن شهريار الناخداه) ولكل منهم نتاجه المستقل في مجال الرحلة.

أما في القرن الخامس الهجري فإن رحلة البيروني تعد أشهر رحلات هذا العصر، إذ رافق فيها السلطان محمود الغزنوي في فتوحاته بالهند، واستقر فيها نحو أربعين عامًا يبحث، ويفحص، وقد دوّن كل ما وقعت عليه عينه بكل دقة، فكان نتاجه في هذا المجال هو «تحقيق ما

للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة». واقتفى هذه الرحلة العديد من الرحالة العرب الذين طافوا الأرض في هذه الحقبة، وأشهرهم ابن بطلان، وأبو عبيد البكري، وغيرهما، وقد خلّف كل منهم كتاباً يحمل اسمه في مجال الرحلة.

ومن أشهر الرحالة العرب في القرن السادس الهجري، الإدريسي، الذي تنقّل بين الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى، حتى حطّ رحاله في صقلية، وألّف كتابه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). وممن اشتهروا أيضًا في أدب الرحلات في هذا العصر (أبو بكر ابن العربي، أبو حامد الأندلسي، أسامة بن منقذ، ابن جبير) وما يزال نتاج الأخير تحديداً مورداً شهيرًا في الشرق والغرب على السواء.

أما القرن السابع الهجري، فقد أفرز الرحالة عبداللطيف البغدادي الذي خلّف مؤلفات كثيرة في اللغة والفلسفة والطب وعلوم الدين؛ أما كتابه في الرحلة فهو (الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث والمعاينة بأرض مصر). وقد عاصره رحالة آخرون، أشهرهم ياقوت الحموي، وابن سعيد الأندلسي، والعبدري. وأنتج القرن الثامن الهجري قمة ما خلّفه أدب الرحلات عند العرب المسلمين من أمثال ابن بطوطة المعروف برحالة العرب، والذي خصص من حياته ما يربو على (٢٦) عامًا من الترحال، نتج عنها كتابه الشهير (تحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) الذي أملاه على الكاتب ابن جزي.



وكان ما تركه ابن خلدون في كتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا) هو نهاية ما جاد به القرن الثامن الهجري.

أفرزت القرون العشرة الأولى من الهجرة العديد من المصادر التي اعتمدت على الرحلة، انطلقت من كتب التعريف بالأقاليم، ثم أعقبتها كتب المسالك والممالك، وأخيرًا كتب المسالك والبلدان. قام بتدوين هذه المصادر علماء وهواة ومبعوثون ومغامرون ومستكشفون؛ ما أثر ليس فقط في أسلوب كتابة الرحلة، بل في تعدد مراميها وأهدافها، حتى صارت على رأس المصادر التاريخية التي يتم اعتمادها في كتابة تاريخ الفترة الوسيطة. وقد تجلى ذلك في بعض الدراسات التي قدمت العديد من نصوص الرحلات، التي تغطي الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي،

وهي في الغالب حزمة المذكرات التي سجلها الرحالة يوميًا أو بعد عودته من الرحلة، إذ دون فيها ما علق في ذهنه من فضول المعرفة أو متعة الاستكشاف أو حب التواصل مع الآخر المختلف داخل البلاد الإسلامية أو خارجها.

اهتمام الغرب بأدب الرحلات العربي

شكّل أدب الرحلة العربي إرثًا معرفيًا تناقله الرواة والمهتمون العرب المسلمون بعد القرن الرابع عشر الميلادي إلى أن أثار اهتمام الأوربيين، وبخاصة مع فترة الحروب الصليبية التي كانت تتطلب منهم معرفة الإقليم الأوسط للامبراطورية الإسلامية، ونتج عن هذا أن حظي أدب الرحلة العربي بعناية الغرب، سيما أنه أخذ يستفيق من سبات القرون الوسطى. وتبلورت بدايات هذا الاهتمام بما قدّمه الجغرافي الإدريسي من خدمة جليلة للغرب عبر وضع ما جمعه من علم ومعرفة بين أيديهم؛ وجاءت مرحلة الاكتشافات الجغرافية، وما تطلبته من رصيد معرفي لمجموع الأقاليم، حتى يتسنى لأوربا تحقيق مشروعها التوسعي؛ فوجدت في كتب الرحلة، وما أبرزته علوم الجغرافيا العربية مصدرًا مهمًا لإغناء مواردها العلمية والمعرفية.



وتضاعف هذا الاهتمام مع ظهور الاستشراق، إذ عالج المستشرقون الأدب الجغرافي العربي بمنهج تاريخي، يهتم بالمصادر وطبيعة المعلومات وترتيبات الفلك وصورة الأرض وأقسامها لدى اليونان والفرس والهنود، وما أضافه العرب في هذا المجال. ومن أشهر مَن برزوا في هذا المجال، «فيستنفلد» الذي نشر «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«ديغويه» الذي نشر المكتبة الجغرافية العربية، التي شملت عشرة نصوص جغرافية، تنتمي جميعها إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين، ثم جاء «كراتشكوفسكي» ليستند إلى نشرات السابقين للنصوص وملاحظاتهم، فكتب كتابه: «تاريخ الأدب الجغرافي العربي».

وبعد الحرب العالمية الثانية عاود المستشرقون الاهتمام بأدب الرحلات العربي، لا سيما أن الجزيرة العربية أضحت محط اهتمام الغرب بعد ظهور ثرواتها النفطية؛ فانكبّ الباحثون على دراسة الرحلات العربية في البر والبحر، وتحليل نصوصها من حيث رؤى الذات والآخر، وكيفية تفسير العرب للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية بين الممالك الإسلامية، والممالك الأخرى الدانية والقاصية، وكان من أشهر هذه الدراسات كتاب (جغرافية دار الإسلام البشرية) للباحث الفرنسي (أندريه ميكيل).

ومع التدافع الاستعماري على العالم العربي، زادت الدراسات التي اهتمت بأدب الرحلات العربي، من خلال نشر المخطوطات العربية المتعلقة بهذا العالم وترجمتها للعديد من لغات العالم، وتدافعت البعثات الاستعمارية التي تمكنت من تعميق الدراسات حول البلاد العربية وفهمها فهمًا عميقًا، فاطلعوا على كل ما كتبه الأولون عن هذه البلاد وأهلها؛ ومن أشهر الكتب التي اعتمدوا عليها: (مروج الذهب للمسعودي) عن إفريقية وآسيا، واهتموا بما ورد عند ابن خرداذبة في كتابه (المسالك والممالك)، وأيضًا كتاب (البلدان لليعقوبي)، ومؤلفي الإصطخري وابن حوقل(ق ٤هـ / ق ١٠م) اللذين ظهرا في سلسلة الجغرافيين العرب التي نشرتها جامعة «ليدن».

أدب الرحلة الحديث في المنطقة العربية

في منتصف القرن العشرين بدأت تظهر بعض الدراسات باللغة العربية، اتخذت من الرحلة العربية مصدرًا لها، فظهر ما يعرف في الدراسات الأكاديمية باسم أدب الرحلات. والرحلة لأنها تحتوي على شواهد حية لفترات غابرة، اهتم علم الاجتماع والجغرافيا والأدب بتراث الرحلة العربية بوصفها طرازاً حياً، يقدم مادة علمية متداخلة حول المكان والزمان، والعادات والتقاليد، ونمط حياة الشعوب التي احتك بها الرحالة في فترة معينة، امتدت عند بعضهم إلى ما يزيد عن ربع قرن.

و تناولت الدراسات الحديثة أدب الرحلات بوصفه نثرًا أدبيًا يتخذ من الرحلة موضوعًا له، وهو بناء فني له ملامحه وسماته الخاصة، وقد عدّه شوقي ضيف في كتابه «الرحلات» أنه أصل القصة العربية. ورغم اهتمام الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة بهذا اللون الأدبي، إلا أن البحث العلمي من وجهة نظر كثير من الأكاديميين ما يزال قليلًا في هذا المجال على مستوى الرحلة القديمة أو الحديثة، لا سيما أن كثيرا من النقاد قد أضاف للرحلة أبعادًا جديدة أدخلت كثيرًا من الكتابات تحت مظلة أدب الرحلات، بما فيها الكتابات عن التلصص أو الجاسوسية الحديثة.

المراجع

- إبراهيم مضواح الألمعي (٢٠١٢م): المدينة المنورة في كتابات الشيخ علي الطنطاوي ورحلاته، الأدب، السعودية، عدد ٧٥.
- حسين محمد فهيم (١٩٧٩م): أدب الرحلات، سلسلة علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٣٨، يونيو.
- سعيد البوزيدي (٢٠١٢م): أدب الرحلة الجغرافية العربية كمصدر المعرفة التاريخية والأنثروبولوجية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب، عدد ١٠.
- شقيقي محمد الكبير(٢٠١٢م): التحقيق الاستشراقي لرحلة ابن بطوطة، دورية كان التاريخية، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، ع ١٧.
- نزار نجار (٢٠١٢م): من أدب الرحلات: إلى الصين علامة فارقة في الزمن الثقافي، الموقف الأدبي، سوريا، عدد ٤٩٨.



السمات الفنية في أدب الرحلة

■ الباحث غازي خيران الملحم - من سوريا

كانت الرحلة واقعا مألوفا لدى العربي، وعادة متجذرة في حيثيات حياته اليومية التي تعتمد في كثير من فصولها على عملية الحل والترحال، أثناء بحثه عن الرزق والماء والكلأ، إلى جانب قيامه برحلة إيلاف الشتاء والصيف التجارية التي جاء القران الكريم على ذكرها، وخصها بسورة مستقلة في كتابه العزيز.

ولما كانت البحار والمحيطات تطوّق أرضه من معظم جهاتها، كان يجهل ما يقع خلف الماء من طبيعة وموجودات ومخلوقات، سوى ما ينقله إليه الرحالة من معلومات؛ فيروي مشافهة أو عبر الرسائل والمخطوطات، ما وقع عليه بصره من مشاهدات، وما سمعت به أذنه من أخبار؛ فشكلت هذه المدونات جنساً أدبياً خاصا، اصطلح على تسميته فيما بعد بـ «أدب الرحلات».

والحديث عن الرحلة يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن الرحالة، ذلك الشخص المسكون بالحركة، الشغوف بحب التنقل، يُرود آفاق الكون في أسفار متلاحقة، فلا يكاد ينتهي من رحلة حتى يبدأ بغيرها، وكأنَّ الشاعر كان يقصده حين قال:

لم يستقر به دار ولا وطن
ولا تدفأ منه قط موضعه

كأنما صنع من بعض السحاب فما
تزال ريحُ في الأفاق تدفعه

وقد بلغ من ولع العربي بالرحلة حدًّا جعله لا يركن إلى المكوث بمكان، أو الميل إلى الاستقرار، ولسان حاله يردد مع الشاعر:

نقِّل ركابك عن ربع ظمئت به
إلى الجانب الذي يهوي به المطر

فان رددت ليس في الرد منقصة
عليك، قد رد قبلك البدو والحضر

ومثل ذلك ما يُروى عن أعرابي كان يكثر من السفر لفترات طويلة، قد تمتد

لسنوات كثيرة، فعاتبته زوجته بذلك، فقال:

أحصي السنين لغيبتي وتصبُّري
وعدي الشهور فإنهن قصار

فأجابته الزوجة بجواب مفحم:

اذكر صبابتنا إليك وشوقنا
وارحم بناتك إنهن صغار

وما كاد الأعرابي يسمع قول زوجته حتى اقتنع واكتفى بما قام به من سفر، فأطلق راحلته، وقرر أن لا يغادر أسرته بعد اليوم، والتفرغ لرعاية أهله وبناته.

هذا، وتحفل كتب التاريخ بالعديد من الأسماء الكبيرة التي جذبها بريق الرحلة من أمثال:

- هيرودوت الفيلسوف اليوناني، الذي جاء مصر فرأى العجائب، وعاد إلى بلاده ليتغنى في مهرجانات أثينا الكبرى بما رأى.
- الاسكندر المقدوني الذي غزا الدنيا، استجابة لهمسة في أذنه، من قبل عرافة أباحت له بسر الكون.
- القائد هانيبال الذي أقسم أن يعبر البحر ويجعل من أمواجه بساطا إلى روما لتأديبها، لجناية ارتكبتها بحق بلده قرطاجة.
- الرحالة ماركو بولو الذي تقدم لفتاة رام خطبتها، وعندما رفضته رحل، واقسم أن لا يعود إلا بطلا، تتعلق بركابه أجمل الجميلات، ولما رجع لم يجد أحداً بانتظاره، لكنه لم يغضب أو يحزن، فالذي رآه في أسفاره كان أروع وأعذب.
- ابن بطوطة: الرحالة العربي الشهير، هاجمه الهنود وهو على تخوم بلدهم، واستولوا على متاعه، ومزقوا مذكراته كلها، لكنه عاد ليروي من الذاكرة الذي حدث.. كيف حدث.
- الرحالة الأندلسي ابن جبير، عانى الكثير في رحلاته إلى الشرق لكنه في النهاية كان سعيداً بما رأى ويشكر الله على ذلك، وفي ختام أسفاره ينشد:

ألقى عصاه واستقر به النوى
كما قرعينا بالإياب المسافر

فوائد الرحلة

يقول الثعالبي:

من فضائل الترحال وفوائده أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار، ومحاسن الآثار، ما يزيده علما بقدرة الخالق، وآثاره الواضحة في بديع صنعه.

وإلى جانب هذا وذاك يظل للترحال فوائد أخرى، أوجزها الشاعر بقوله:

تغرب عن الأوطان تكتسب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وأدب وصحبة ماجد

ويقول المسعودي، يحث الناس على الرحلة: يا معشر الناس سيحوا في الأرض تطيبوا، فإن الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه في موقع واحد فسد وتغير طعمه، وانشد:

إنـي وجـدت وقـوف الـمـاء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
والتبر كالتراب ملقى في مكامنه
والعود في أرضه نوع من الحطب

ويذكر الرحالة العربي الحديث حسن العدل، في سياق رحلة إلى أوربا عام ١٨٨٩م: وبعد... «فأخبركم سادتي، وكلكم خبير بثمرات التجوال في الأقطار، وملازمة عصا التسيار، هو السفر طالما أسفر عن العجائب، وهو الترحال كثر ما أعرب من غرائب.. يدرب الإنسان ويشحذ الأذهان..».

وقد انتبهت لفوائده الأوربيون فساحوا في الأقطار، وجاسوا خلال البلاد والأمصار، فالمُشرِّق والمُغرِّب، يرتقون نجداً، وينحدرون غوراً، دائبين على استكشاف البقاع ومعرفة أحـوال الشعوب على اختلاف طبائعهم وعوائدهم؛ فحصلوا من ذلك على ما أكسبهم المعرفة، وأزال عنهم الجهالة، وأوسع من نطاق علمَيْ الجغرافية والتاريخ اللذين هما أساس التمدّن، ومركز دائرة المعارف. ولم يألُ كل سائح منهم جهداً في تدوين ما شاهده من البلدان، واستكشفه من أحوال أهلها المادية والأدبية، حتى صارت مؤلفاتهم في ذلك عدداً عديداً؛ فمنها ما هو في كتب مستقلة، ومنها ما هو على الجرائد اليومية، تسهيلاً للمطالعين وتثقيفاً لعقولهم؛ فلست ترى عائلة أوروبية إلا ولديها مجموع عظيم من ذلك، يجلبون بمطالعته أنسهم، ويوسعون بذكره دائرة أفكارهم.

دواعي الرحلة

لم يكن كل الرحالة على سويّة واحدة من الاهتمام والتفكير، بل كان لكل واحد منهم هدف يضعه نصب عينيه ويجهد في تحقيقه، فبعضهم كان ينشغل بمشاهدة المعالم الحضارية، من آثار ومعابد ومتاحف ودور عبادة، وأوابد تاريخية؛ فيصفها وصفاً دقيقاً مسهباً، ويستطرد في ذكر كل ما يتصل بها من تواريخ وأعلام ووقائع؛ بينما كان غيره يسعى قدر طاقته للاتصال بالسلطان أو الحاكم، فينصرف إليه دون سواه؛ وهناك من يعمل للقاء العلماء ورجال الدين، والانغماس في مجالس العلم.. وهذا النشاط يأخذ جُلَّ وقته، ويعطيه مساحة أكبر داخل نص الرحلة، وموقفه من الطبقات الإنسانية ونظرته إليهم، ودراسة أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومحاولة اقترابه من فهم أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم الفلكلورية، والوقوف على وسائل عيشهم وسبل حياتهم اليومية.

أنواع الرحلة

مع تقدم الوعي وتجدد الحاجات، تنوّعت الرحلات وتعددت مشاربها، لكنها عند التحقيق لا تخرج عن الإطار العام للرحلة، بما تحمل من مضامين فكرية وأدبية ووصفية، والتي من أهمها:

١. دينية: كأن يرتحل الإنسان إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة؛ تلبية لنداء ربه، ولطلب الأجر والمغفرة.

٢. علمية أو تعليمية: وهذه تكون لغرض الاستزادة من العلم في بلاد أخرى من

العالم، اشتهرت بمجالات علمية معينة كالطب والهندسة والزراعة والعمارة وغيرها.

٣. سياسية: كالوفود الدبلوماسية والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى دول أخرى.

٤. سياحية: وهذه تكون عن رغبة شخصية، وحب للسفر، وهواية التنقل وتغيير الأجواء والمناظر المألوفة، لتجديد الدماء وتهذيب المزاج بالمشاهدة والمغامرة، والاطلاع على كل ما هو جديد ومفيد، والتعرّف على المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج، وحتى الكهوف والأودية وقمم الجبال وما تحويه من غرائب الخلق وإبداع الخالق عز وجل.

٥. اقتصادية: وهدفها الأول التجارة وتبادل السلع، أو فتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو جلب سلع تتوافر في بلاد أخرى، يندر وجودها في بلد المسافر، أو فراراً من غلاء، أو سعياً وراء الوفرة أو العمل.

ويظل لكل واحدة من هذه الأنماط شكله الخاص، لكنها جميعا تنتمي لخط واحد هو أدب الرحلة.

لغة الرحلة

في البداية، غلب على لغة الرحلة التكلّف والتأنق من سجع وبديع، وقد ساد هذا اللون في التعبير أكثر في الأزمان السابقة، إلا أن القلة من الأولين وبعضاً من المتأخرين، صاغوا وصفهم للرحلة بلغة واقعية بعيدا عن الحشو بالمفردات



التقليدية الثقيلة على الأسماع.. إلى آفاق بديلة أرحب من أساليب الفنون الكتابية، التي تشدّ القارئ وتشحذ ذهنه بالأصداء المرسلة، التي تقترب من لغة الأحاديث اليومية، مع بعض النقلات اللفظية المحببة التي تغني النص وتُجمّله.

ومن هنا، نجد هذه اللغة قد سلكت اتجاهين متباينين، هما:

١- فَكِهة: القصد منها إضفاء الحيوية وتلوين النص بالإثارة والتشويق التي تمتع القارئ وتشده، فخلط بعض كتاب الرحلات بين الجد والهزل، اللذين أوردوهما بطريقة يكسوها الظرف غالباً، من أمثال فارس الشدياق، الذي طبع وصفه للرحلة بروح السخرية والتهكم، فأضفت على أعماله نوعاً من المرح الطبيعي، لا تكلُّف فيه ولا تصنُّع ينبعث من قلمه بسلاسة وشفافية، فجاءت نصوصه مشبعة بمزاج صاحبها الفكه العابث، حتى لا تدري أحيانا أجادٌ هو أم هازل، وكان الشدياق شاعراً وناثراً واسع المدى، يمتاز بأسلوبه العابث المتنافر.

٢- جادة: وهناك من كتب مواضيع رحلته بطريقة جادة رصينة، بعيدة عن التشرذم

الكلامي والعبث اللفظي، ومنها:

أ- الرحلات التي يكتبها العلماء للتزود من العلوم والمعارف، التي تخصصوا فيها، مثل علماء الحديث الشريف، والجغرافية والنبات والصيدلة، وغيرها من العلوم.

ب- الرحلات التي كتبها رجال البريد والحكومة، التي غالبا ما تكون لإبانة معالم الطرق والسكك، وتوضيح المسالك بين البلاد المختلفة.. هداية لمن يسير عليها، إضافة إلى بعض الاستطرادات الشخصية.

ت- الأجزاء التي وصف فيها الرحالة المدن والقصور وما ماثلها من معالم البنيان، وصفا تقريريا جافا، لا هدف منه سوى نقل المعرفة على صورتها الواقعية.

ث- التقارير التي تمثلت في رحلات البعثات الدبلوماسية والسفارات بعامة.

أنواع أدب الرحلة

تتجلى جماليات أدب الرحلة، فيما يعرضه هذا الفن من تنوّع في التعبير، الذي تراوح مواضيعه بين ضروب الأدب المعروفة، من نثر وشعر ووصف، وبين مذكرات الرحلة وما تتضمنه من أصداء أدبية ومرجعيات فنية نستعرضها فيما يأتي:

١- النثر: وهو جزء مهم في أدب الرحلة، يتواصل مع القارئ عبر مقطوعات نثرية لا تقل روعة عن بقية فنون الآداب الأخرى. ومثال ذلك، مقطوعة المسعودي التي يتحف القارئ بها في مقدمة كتابه مروج الذهب:

«ولقد أمضينا دهرا تتقاذفنا الأسفار بقطع القفار.. تارة على متن البحر.. وطورا على رأس البر.. مستطلعين بدائع الشعوب بالمشاهدة، والتعرف على خواص الأقاليم بالمعاينة، فأحيانا في أقصى خراسان، ومرة في أواسط أرمينيا وأذربيجان.. وتارة في العراق أو بلاد الشام، نسري في الآفاق سرى الشمس في الإشراق، ثم ينشد:

تيمم أقطار البلاد فتارة لدى
شروقها الأقصى وطورا إلى الغرب

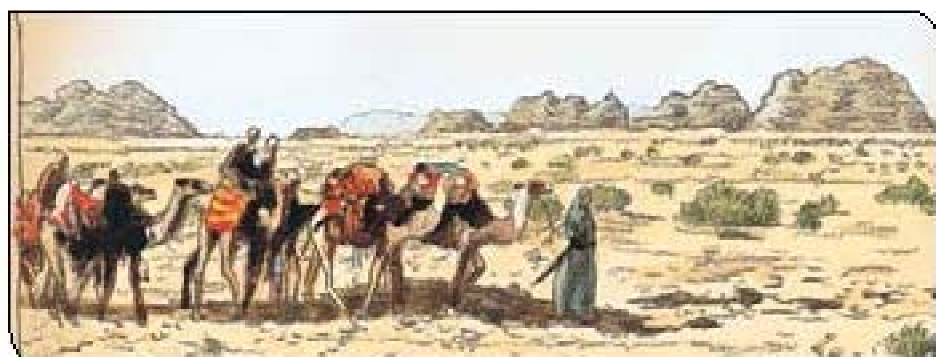
سرى الشمس لا ينفك يقذفه النوى
إلى أفق ناء يقصر بالركب

٢- الشعر: وللشعر في معظم الرحلات وجود ملحوظ لا يمكن الاستغناء عنه في ثنايا نص الرحلة، وقد أكثر بعضهم من إيراد الشعر في كتابتهم المختلفة كشواهد داعمة لموضوعاتهم النثرية المختلفة، فأسهبوا بذلك، حتى غدت مدوناتهم الكتابية أقرب ما تكون بالمختارات الشعرية.

وكان الرحالة «مسعر بن مهلهل» شاعرا كثير الملح والطرف، متعدد الأسفار والاغتراب، وقد طاف الهند والصين، وبلاد الترك البااردة، وغيرها من الأقطار، وفي ذلك يقول:

من كان من الأحرار
يسلو سلوه الحر

لا سيما في الغربة
أودى أكثر العمر



شــاهــدت أعــاجــيــب

وألـــوانــــا مـــن الـــدهـــر

جـبـنـا الـدنـيـا بـمـا فـيـهـا

مـــن الـسـهـل إلـــى الـوعـر

فـنـسـتـطـاف عـلـى الـثـلـج

ونـشـتـوا بـلـد الـتـمـر

وهذا الشاعر الأعشى الذي تدل آثاره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة يمدح سادتها وأشرافها.

ولا يكتفي كما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة في حضرموت ونجران وعكاظ، بل يتعداها إلى بلاد فارس وعمان والشام، متنقلا فيها إلى حمص والقدس وأحيانا يجتاز البحر إلى نجاشي الحبشة.

ويجري على لسانه الشعر الذي يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة، فيقول:

وقـد طـفـت لـلـمـال آفـاقـه

عـمـان فـحـمـص فـاورشـلـم

أتـيـت الـنـجـاشـي فـي أرضـه

ومـوطـن الـنـبـيـط وبـلـد الـعـجـم

والرحالة المغربي: «أبو الحسن الغرناطي» يميل في أخباره إلى الأدب والشعر، في تدوين رحلاته، فقد كان شاعرا ناثرا ظريف الشمائل، اطلعت له على وصية وضعها لابنه الذي سار على خُطى والده في تعلّقه بالسفر وحب الترحال، أتى فيها بغرر الكلام وجواهر المعاني، وسرد فيها قصيدة مطربة مطولة أولها:

أودعـك الـرحـمـن فـي غـربـتـك

مـرتـقـبـاً رحـمـاه فـي أوبـتـك

ومـا اخـتـيـاري كـان طـوع الـهـوى

لـكـنـنـي أجـري عـلـى بـغـيـتـك

إلى أن قال بيتا أنا شغوف به، لهوجاً بإنشاده وهو:

وكـل مـا كـابـدتـه فـي الـنـوى

إيـاك أن يـكـسـر مـن هـمـتـك

وشهد العصر الحديث رحلات عديدة قام بها أفراد وجماعات من بلاد الشام خاصة، يرتادون مجاهل الأرض، ويفتشون عن الرزق بين جنباتها، ويشقون في طريقها الوعر مسالك جديدة.. ركبوا في سبيلها الأخطار وتجشموا لأجلها الصعاب، وكان من بين هؤلاء أدباء وشعراء، من أمثال إيليا أبو ماضي الذي يقول

مبررا ابتعاده عن الأهل والوطن:

لبنان لا تعذل بنيك إذ هم
ركبوا إلى العلياء كل سفين

لم يهجروك ملالة، لكنهم
خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون

ولما ولدتهم نسورا حلقوا
لا يقنعون من العلا بالدون

٢- القصة: يرقى وصف الرحلة أحيانا إلى مستوى القصة المتكاملة، بما تحمل من مضامين وأصداء أدبية متنوعة، استحضر فيها صاحبها مشاهد الرحلة بكل ترجيعاتها، التي تتفاوت بين الطول والقصر والقوة والضعف، وأحيانا من دون ترابط منطقي بين عناصرها المختلفة، سوى اللغة السردية التي غالبا ما يملها القارئ، وقد ينصرف عن مطالعتها كليا، ولكن هذا لم يمنع من وجود قصص عالية الجودة وغاية في التشويق.

إلا أنه في العصر الحديث، أخذت هذه الأعمال تنأى بنفسها عن الشكل التقليدي القديم، لتقترب بدرجة ما من الشكل الروائي المعروف؛ فيما يتعلق بالكثير من مقوماتها الفنية، من مقدمة وحبكة وشخوص وحدث، الخ..

وعلى أي حال، فإن الرحلة الأدبية، إن لم تكن قصة أو رواية بالمعنى الدقيق، فهي من جنسهما أو الأخت الشقيقة لهما.

والقصة في الرحلة تنقسم إلى فرعين هما:

أ- القصة الواقعية:

وهي التي يتحدث فيها الكاتب عن حوادث واقعية جرت معه، كقصص أحمد بن فضلان، وابن بطوطة ولقائه بالعديد من الأقوام، وما صادفه في طريقه من مفاجآت سارة، وأخرى تقشعر لها الأبدان، أوردها في سياق حديثه عن جماعات تتغذى على لحوم البشر! وهذه حقيقة موجودة في جزء من أدغال إفريقيا، أثبتها العلم الحديث.

كما تحدث عن بعض المجتمعات في الهند والصين وغيرهما من مختلف البلدان، من حيث طريقة عيشهم، وحالات الزواج والموت والحرب، وكان يروي بعض التفاصيل عنهم بأسلوب يغلب عليه الطابع القصصي البحت.

ب- القصة الخيالية:

وقد قيل: وجد الإنسان راحلا، فإذا أعجزته الرحلة المحسوسة رحل بخياله، فاجترأ من عالم الأحلام قصصا ورحلات لاحظ لها من الواقع، مثل رحلات السندباد البحري، ومغامراته التي تفوق الوصف والتصور، ورحلات جليفر لسويفت، ولقائه بالعمالقة والأقزام، ورحلة أليس في بلاد العجائب وولوجها عالم الأحلام.

ومن ميزات الرحلة الخيالية أنها لا تقتصر على الماضي وحسب، بل تتعداه إلى الحاضر المعاصر، وتنتقل بلمح البصر إلى المستقبل عبر آلة الزمان، للقصاص الإنجليزي ولز.

وهناك رحلات مشابهة لتلك، مثل الرحلة إلى النفس وما تحتويه من أغوار وألغاز تضاهي الكون وما فيه من تعقيدات، وفي هذه الحالة لا بد أن يستعين الإنسان بغيره ليفهم ذاته أولاً، ويسبر أعماق كنهه ثانيا؛ فيلجأ إلى الكتب التي هي رحلة في عقول وتفكير الآخرين، ووسيلة

للرحيل إلى عوالم كثيرة تنقلها الرؤى ويكتنفها الخيال؛ وفي ذلك متعة لا تُجارى، تعقبها راحة نفسية وهدوء بال، قد يستمران لفترة طويلة.

وقد تجاوز بعضهم الأنماط السابقة، إلى غيرها من الفنون الأدبية الأخرى، فمُلئت كتب رحلاتهم بالأحاجي والمعميات والنوادر، كما عمد بعضهم إلى الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، وأدمجها في سياق أعماله أو أوردها - للحاجة إليها- كشواهد لتوضيح ما ذهب إليه من آراء أو تعليق على مواقف حصلت معه أثناء تجواله في المعمورة أو الفلوات.

وصف الرحلة

احتل الوصف مكانة جلية في أدب الرحلة، وعُدَّ إحدى سماته الفنية البارزة، لما يحتويه من عناصر متعة وتشويق، يطرب لها السامع ويلذ بمطالعتها القارئ، الذي يجدها مبثوثة في حنايا كتب الرحلات قديمها وحديثها، ومن ذلك ما تحدث به الرحالة المصري حسن العدل أثناء رحلته إلى مدينة بازل السويسرية، قائلا:

«ولما نلت من مشاهدة تلك المدينة ما نلت، بارحتها في أسرع قطار في الآفاق طار، ولم يزل يزج بنا في أودية مونقة، بين أشجار مورقة، حتى حط بنا في قرية يقال لها تون، ومنها بنون موسط نزلنا سفينة بخارية على بحيرة كبيرة، وحينما شقت تلك الجارية جلباب الماء، ذهبت بقلاعها نحو السماء، عرضت علينا الشواطئ منظرها الرائق، وحسنها الشائق، وقد انتثرت عليها أخصاص ساكنيها، ومنازل نازليها، ثم أخذت تلك الشواطئ بالارتفاع تدريجيا، حتى توسطنا بين جبال سامقة وأعلام شاهقة، حتى قربنا من مصب نهر في تلك البحيرة لاح لنا منظر بهيج، ورونق يهيج، فشاهدناه نهرا بين جبلين باذخين، وطودين منيفين، وقد مالت إليه الغصون، كأنما تميل لرشف رضابه العذب، أو تحنو شفقة على هذا العاشق الصب، كما قال الشاعر إبراهيم القيراطي، وهو من أحسن موزوناته:

وربَّ نهر له عيون
تحار في وصفه العيون

لما غدا الريق منه عذبا
مالت إلى رشفه الغصون

أو كما قيل وما أطربه من قول:

تثنى الغصن إعراضا وعجبا
على نهر يذوب أسا عليه

فرقَّ له النسيم وجاء يسعى
ملاطفة وميلا إليه

فيا له من منظر عجيب يهش إليه الخاطر، ويقرُّ لرقة جماله الناظر، فكأنَّ ابن خفاجة كان يرمقنا بطرفه، حين أنشد ضمن طرفه:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيل على لجين الماء

أو مجير الدين بن تميم قد حاضرنا، وقد وصف فأنشدنا:

ونهرٌ إذا ما الشمس حان غروبها
ولاحت عليه غلائلها الصفر

رأينا الذي أبقت به من شعاعها
كأنا أرقنا فيه ندف من العطر

ولم نزل نمتّع الطرف بمحاسن ما على اليمين والشمال من الضفاف ذوات الأشجار والأثمار، وقد لبست الشمس جلبابها الأصفر فرقا من فراقها لحسن ذلك المنظر:

ما اصفر وجه الشمس عند غروبها
إلا لفرقة حسن ذاك المنظر

ولم نزل جذلين مبتهجين، حتى رست بنا السفينة على محطة ركبنا بها عربات بخارية، قاصدين بلدة يقال لها انترلكن، وبعد أويقات زج بنا في واديها، فلاحت لنا عجائب مناظرها ونزلت بها، وقد ناداني لسان حالها:

هلم يا صاح إلى روضة
يجلو بها العاني صدا همه

نسيمها يعثر في ذيله
وزهرها يضحك في كمه

وبينما نحن في لهونا وسمرنا، إذ باغتتنا السماء، فأبرقت وأرعدت، وأرسلت سحائبها وهملت مقلها، والريح تعبث بالأغصان، وقد انحدرت الغدران، وهوى ماؤها فتكسر، وجرى سائلاً إلى المنحدر:

وتحدث الماء مع الحصى فجرى
النسيم عليه يسمع ما جرى

فكأن فوق الماء وشياً ظاهراً
وكأن تحت الماء سراً مضمرا

وعند ذلك عمدت للمبيت حتى الصباح، حتى إذا ابيض الجناح، تجهزت للمغادرة وقد عقدت العزم على المغامرة».

وصف رحلة الحج

في العهد الإسلامي الميمون، نشطت الرحلات بشكل ملحوظ، نظرا للحالة الأمنية المستقرة التي بات المجتمع العربي ينعم بها، في ظل الدولة الإسلامية الفتية، فأدى ذلك إلى ظهور رحلات من نوع خاص، ظاهرها الإسلام وباطنها الإيمان، واعتُبر أداؤها من رحلات العمر، التي يجب على المؤمن القيام بها ولو مرة في حياته على الأقل، ألا وهي رحلة الحج.

وإذا ما حقق المؤمن حلمه، يجد لزاماً عليه أن ينقل لأهله ولجيرانه وإخوانه ممن لم تساعدهم الظروف لزيارة الأماكن المقدسة، مشافهة أو كتابة وصفا لمعالم الحج ومناسكه، منذ بداية الإحرام والتلبية حتى الوقوف في عرفة إلى يوم الإفاضة والتحلّل من المناسك، وغالبا ما يتخلل هذا الحديث ذكرٌ لمحطات سيره التي اتبعها أثناء رحلته، سواء كانت برا أو بحرا، معرّفا بالآثار التي خلفها السلف الصالح، ومعطيا نبذة عن المواقع الجغرافية والتاريخية التي مر بها، بما تحتوي عليه من نعوت وأوصاف للكعبة المشرفة والحجر الأسود، ومقام إبراهيم عليه السلام، وجبل أُحد وغيرها من الأماكن والمواقع التي تتمتع بصفة دينية أو تاريخية أو اجتماعية. ولا ينسى الحاج ذكر لقائه بإخوان له من المسلمين الذين قدموا إلى هذه الديار المباركة من بلاد متعددة بعيدة، وكيف يتكلمون بلغات مختلفة وألوان بشرتهم متباينة، وما إلى ذلك من أحاديث وقصص مشوّقة استقاها الحاج من جو رحلته.

ومن الرحالة المحدثين الذين ساروا على نهج أسلافهم القدماء، الرحالة التركي الدكتور مقداد يلجن، الذي يقول:

«كانت رؤية هذه البلاد أُمنية وأحلاما منذ يَفاعتي، وكنت أقول لا يكفي الذهاب إلى الحج والعمرة، بل يجب أن أمكث في هذه البلاد المقدسة فترة أطول، لأزور تلك البقاع التي شهدها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومشى على ثراها، والحمد لله قد تحققت أمنيتي، وهيأت لي الإقامة أضعافاً مضاعفة مما كنت أتمناه، فقد مكثت في ربوعها أكثر من عشر سنوات، فتكوّنت لدي بعض الانطباعات والملاحظات، منها:

تلك التوسعة المستمرة للحرم المكي، وتزويده بكل وسائل الراحة خدمة لضيوف الرحمن، وكنت سابقا أتصور أن جميع أرض المملكة العربية السعودية عبارة عن صحراء قاحلة وغبار وعفار، وحَرٌّ لا يكاد يطاق؛ ولكن عندما زرت هذه الربوع الطيبة، وجدت تضاريسها منوعة، وليست صحراء كلها، بل هناك مناطق خضراء تحفل بمزارع النخيل والغابات الطبيعية، كما في منطقة الخرج والهفوف، والبساتين الوارفة في الباحة وأبها. وليست كل المناطق شديدة الحرارة، بل إن هناك مناطق معتدلة مثل الطائف، وهناك أمطار غزيرة تهطل حتى في الصيف، وتنبت الزهور الطبيعية في بعض المناطق، ووجدت في بلجرشي مياهاً جارية وجبالا خضراء مكتسية بالأشجار تشبه تماما ما يوجد في تركيا.

ومنها سرعة التغيير في المظاهر العمرانية، ففي عشر سنوات لاحظت تطورات عمرانية مهمة، من فتح الطرق وتجميل جوانبها بالأشجار والأزهار التي تتناسب طبيعتها مع كل بيئة، وبناء الجسور والأبراج المعمارية ذات الأشكال الهندسية المتطورة والأنماط المختلفة، فما وجدت - والحق يقال- في أي بلد أقمت فيه هذه السرعة العمرانية الفريدة وعلى مختلف المستويات.

خاتمة

واليوم، تطورت الرحلة من حيث مفهومها وأدواتها، وطريقة السفر والترحال، وارتبط ذلك كله بظروف تختلف عن ما كان معتادا في الماضي، أبرزها وسائل النقل الحديثة، التي تحوّلت من النقل بالدواب إلى امتطاء صهوة البوينج والإيرباص والكونكورد التي تفوق سرعتها سرعة الصوت.

والآن، وبهذا التطور اختلف الأمر، لا سيما في ظل وسائل الاتصال الحديثة التي جاءت لتشبع في الإنسان رغبة أكبر في المعرفة عن قرب، فكانت الفضائيات من أقمار وأطباق وإلكترونيات كفيلة بنقل العالم إلى منزلك.

وعلى ما يبدو لي - والحالة هذه - أن زمن الرحّالة العظام من أمثال ابن بطوطة وماجلان قد انتهى أو كاد، بالنظر لوسائل الاتصال الفائقة الدقة التي لملمت أطراف الكون، وخلقت من معظم البشر رحالة وهم في موضعهم لا يبرحونه، أكثر اطلاعا وأسرع ترحالاً، حتى الأقمار الصناعية ترجلت من عليائها وأصبحت متاحة لمن يرغب بتسخيرها.

فبعد ظهور موقع جوجل إيرث، صار بالإمكان تصفح أركان الدنيا من الأعلى، والرحيل إلى أي موقع يعتقد وجوده على الأرض، بما في ذلك الشوارع والمباني والمدارس، وأعماق البحار والمحيطات التي يتم مسحها بأجهزة السونار، وكأن الكرة الأرضية تقلصت لدرجة مكّنت من تفحصها على شاشة الآيباد القزمة وهي قابعة بين يديك.. وهنا لا يسعني إلا القول: سبحان الله الذي أحسن صنع كل شيء، بقدرته وسابق علمه، وجعله للإنسان مسخرا.

هذه إلمامة سريعة عن هذا النوع من الأدب الزاهي، ولمحة مكثفة حول سماته الفنية التي تميزه عن غيره من ضروب التعبير الأخرى، لاستناده في كثير من مقوماته على الواقع المحض، والتجربة الحيّة المُعاشة، التي زاولها الرحالة عن كثب.. وبكل تجلياتها؛ حلوها ومرها، نجاحاتها وإخفاقاتها حتى أوبته إلى الديار، وتحلُّله من الأسفار، ومكوثه قرير العين بين الأهل وتحت سقف الدار، فيهتف في أعماقه مستريحا:

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحبُ إلا للحبيب الأول

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى
وحنينُه أبداً لأوّلِ منزل

المصادر:

١- حسني حسين - أدب الرحلة - القاهرة - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦م.
٢- حسين فوزي - حديث السندباد القديم - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٥م.
٣- جورج غريب - أدب الرحلة، تاريخه وإعلامه - بيروت - دار الثقافة ١٩٧٩م.
٤- نقولا زيادة - الرحالة العرب - القاهرة - دار الهلال - ١٩٥٦م.
٥- سويفت - رحلات جليفر - ت: نور شريف - كتاب اقرأ - القاهرة ١٩٨٣م.
٦- شوقي ضيف - الرحلات - دار المعارف - القاهرة ١٩٥٦م.
٧- د. مقداد يلجن - الرحلات العلمية - دار عالم الكتب - الرياض ١٤١٣هـ.



أدب الرّحلة بين التّراث والمعاصرة

■ د. إبراهيم الدهون- جامعة الجوف

تمثّل الرحلة نوعاً من الحركة والنّشاط للإنسان، وتكشف النّاس والأقوام؛ وهنا تتجلّى قيمة الرحلات كمصدر رئيس لوصف أنماط البشر وسلوكياتهم وثقافاتهم، كما تعمل على رصد بعض جوانب حياة النّاس اليوميّة في مجتمع معين خلال مدة زمنيّة محددة؛ لذلك نلمس أنّ للرحلات قيمة تعليميّة وتثقيفيّة تطغى على ما يناله الفرد من المدارس، والمؤسسات التّعليميّة.

على أنَّ ثمار الرّحلة لا تتوقف عند التّعارف أو صقل الشّخصية أو كشف المجهول من طبائع الشّعوب، لكنّها تجود بالمكاسب العلميّة والأدبيّة، التي قد يتعذر حصرها؛ وبخاصّة إذا كان الرّحالة متمتعاً بقوة الملاحظة، وحنكة التّطلع، ويقظة الحواس، وحبّ المحاورة والرغبة في التّحصيل والحرص على التّدوين، والتّسجيل(١).

ولعلّ أبرز دور قامت به الرّحلة في العالم العربي هو الخدمة الكبرى، التي قدّمتها لعلم الجغرافيا، لأنّ الرحالة يكتب بقلم الذي اتّصل بالظواهر الجغرافيّة والطبيعيّة اتّصالاً مباشراً، فرأى وسمع، كما أنّه كان ذا نفع للمؤرخ ولعالم الاجتماع، وللأديب، والفلكي، والفيلسوف، والسّياسي، والاقتصادي.

أمّا القيمة الأدبيّة للرحلات فتتجلّى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، وإذا كان من أبرز ما يميّز أدب الرحلات تنوعٌ في الأسلوب من السّرد القصصي إلى الحوار ثمّ الوصف وغيره؛ فإنَّ أبرز ما يميّز أسلوب الكتابة القصصي، المعتمد على السّرد المشوق.. ما يقدّمه من متعة ذهنيّة كبرى، وقد أفاد أدب الرّحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللّهو، والعبث اللّفظي، والتّكلف في تزويق العبارة، إيثاراً للتعبير السّهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه، ممّا يفتقده كثير من الأدباء في بعض عصورنا الأدبيّة(٢).

يُعدّ أدب الرحلات نوعاً من الآداب الذي يصور فيه الأديب ما جرى من أحداث وما قابله من أمور أثناء رحلة قام بها لإحدى البلدان؛ كما تشكّل الرحلات مصدراً رئيساً للجغرافيا والتاريخ والاجتماعيات؛ لأنّ الكاتب ينهل من نبعها المعلومات والحقائق المثيرة.

ويلحظ أنّ هذا الفنّ من فنون الأدب العربي الذي لم يظهر تحت مسمّى أدب الرحلات، وإنّما كان يظهر أحياناً تحت خانة «كتب التاريخ أو الجغرافيا أو السّيرة الذاتيّة، أو كتب الاعتراف أو أدب الاعتراف». وهكذا، فإنّ هذه التّسمية: «أدب الرحلات» تسمية وليدة هذا العصر، وما شهده من دراسات ومصطلحات وتقسيمات لفنون وألوان المعرفة الأدبيّة.

وعلى الرغم من هذا، فإنّ العرب طوّفوا قديماً في سفرهم البلاد، ومارسوا التّرحال في شبه الجزيرة العربيّة والبلدان المجاورة، وقاموا برحلتي الشّتاء والصّيف اللّتين وردَ ذكرهما في القرآن الكريم[٣].

بيد أنّ ذروة الرحلات بلغت خلال مدة الفتوحات الإسلاميّة، وما تلاها في عصر الاستقرار والازدهار، والمعرفة والحضارة حتّى مشارف القرن الخامس الهجري تقريباً.

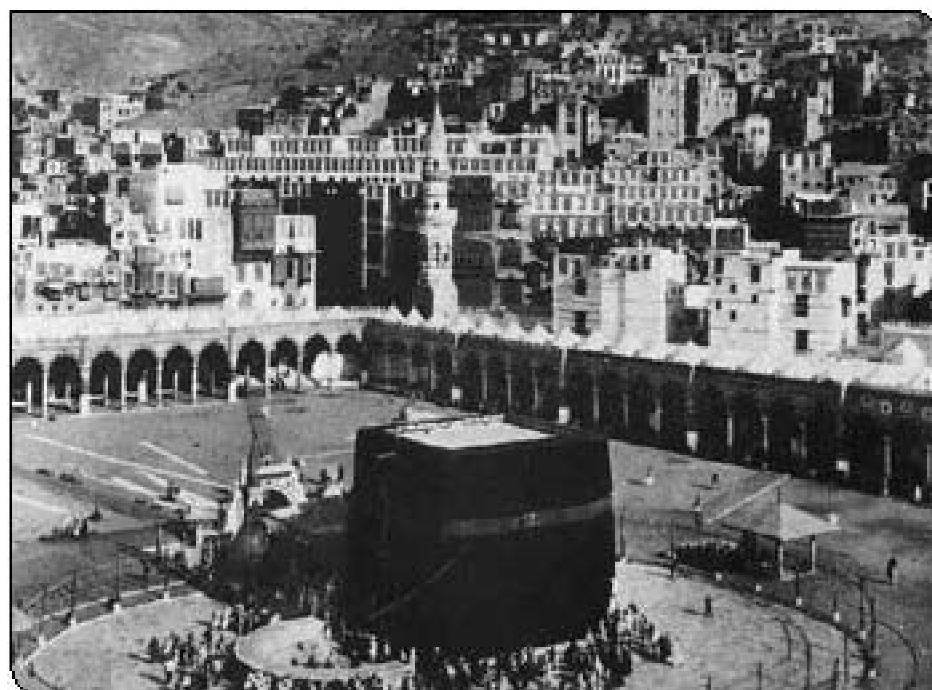
وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ابن خلدون قد أعلن صراحة أهمية الرحلات، فأورد ذكرها في مقدمته الشّهيرة، إذ قال: «والرحلة لا بدّ منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[١].

هذا، ولم تقتصر دوافع الرحلة على التزوّد بالعلم ومقابلة الشّيوخ، وأداء فريضة الحج، وإنّما كانت التّجارة علاوة على ذلك، ومنذ قديم الزمان أمراً اقتضى القيام بالرحلة، والسّفر البعيد. ولعلّ من أشهر الرحلات البحريّة التّجاريّة في المحيط الهندي التي تمّت خلال النّصف الثاني من القرن الثّالث الهجري هي رحلة التّاجر سليمان السيرافي.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أنّ الرحلات العربيّة الإسلاميّة مرت في فترتين متباعدتين، اختصت كلّ منهما بظروف واهتمامات تختلف عن الأخرى؛ فقد بدأت الفترة الأولى منذ عصر ما بعد الفتوحات الإسلاميّة، ونشطت باتّساع الرقعة الأرضيّة للعالم الإسلامي جنباً إلى جنب مع ازدهار الفكر، وتنوّع منابع المعرفة. أما الفترة الثّانية التي ازدهرت فيها الرّحلة، وكان لها تأثيرها على الفكر العربي الإسلامي، فقد بدأت مع حركة النّهضة العربيّة الحديثة في القرن الثّالث عشر الهجري. وما بين الفترتين لم يُجُب الرحالة المسلمون البلدان، بقدر ما فعلوا من قبل إبان عصر الحضارة الإسلاميّة، العصر الوسيط الأوروبي؛ وإن استثنينا عدداً قليلاً من الرحالة، وعلى رأسهم ابن بطوطة، وابن خلدون[٤].

أشهر الرحّالة العرب

ابن فضلان: صاحب كتاب رسالة ابن فضلان، ولد في القرن العاشر الميلادي، أرسله الخليفة العبّاسي المقتدر بالله من بغداد إجابة لملك الصقالبة - في روسيا - لتعليمه الإسلام وبناء مساجد وحصن له من



أعدائه، فأرسل ابن فضلان على رأس وفد العلماء والفقهاء وأمضى ثلاث سنوات من (٩٢١- ٩٢٤هـ) في بلاد الروس، والصقالبة، والخزر، والاسكندنافية.

ابن جبير: صاحب كتاب تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، عُرف برحلة ابن جبير وهو من الأندلس، اسمه محمد بن أحمد بن جبير الكناني، المعروف بابن جبير، ولد في بلنسية بإسبانيا سنة (٥٤٠ هـ)، وتعلم على يد أبيه وغيره من العلماء في عصره، ثمّ استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبدالمؤمن ملك الموحدين في وظيفة كاتم السّر، فاستوطن غرناطة.

العلامة الإدريسي: صاحب كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، واسمه أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس، أحد كبار علماء الجغرافيا، كما أنه كتب في التاريخ، والأدب، والشعر، والنبات ودرس الفلسفة، والطب، والنجوم، في قرطبة.

ابن بطوطة: ولد في طنجة سنة (٧٠٣هـ) في المغرب لعائلة عُرف عنها عملها في القضاء، وفي فتوته درس الشريعة وقرر وهو ابن عشرين عاماً أن يخرج حاجاً، كما أمل من سفره أن يتعلم المزيد عن ممارسة الشريعة في أنحاء بلاد الإسلام. وخرج من طنجة سنة (٧٢٥ هـ) فطاف بلاد المغرب، ومصر، والشام، والحجاز، والعراق، وفارس، واليمن، والبحرين، وتركستان، وما وراء النهر، وبعض الهند، والصين، وجاوة، وبلاد التتار، وأواسط إفريقيا، واتصل بكثير من الملوك، والأمراء، فمدحهم، وكان ينظم الشعر، واستعان بهباتهم على أسفاره.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، وقد استغرق في مجموعها نحو تسع وعشرين عاماً، وكان أطولها الرحلة الأولى التي لم يترك أثناءها ناحية من نواحي المغرب والمشرق إلا زارها، وكانت أطول إقامة له في بلاد الهند إذ تولى القضاء لمدة عامين، ثم في الصين إذ تولى القضاء فيها عاماً ونصف العام.

أدب الرحلات في العصر الحديث

برز أدب الرحلة في العصر الحديث كشكل فني داخل في الأدب، وليس دراسة تاريخيّة وجغرافيّة حيّة كما كان من قبل. ومن نماذجه: «تخليص الإبريز في تلخيص باريس» لرفاعة الطهطاوي، الذي رافق البعثة التي أرسلها محمّد علي للدراسة في فرنسا، ليكون واعظاً وإماماً، لهذا، تصور رحلة الطهطاوي انبهاره بمظاهر النّهضة الأوروبيّة، مع نقد لبعض عاداتهم في أسلوب أدبي.

أمّا أحمد فارس الشدياق، فهو مشهور بكتابه «الواسطة في أحوال مالطة»، وقد وصف صنوفاً من العادات والتّقاليد، وبخاصة النّساء المالطيات.

أما عيسى بن هشام، فكتب أدب الرواية العربيّة الحديثة، الذي يُعدّ من كتب الرحلات الخيالية، إذ يقصّ رحلة قام بها البطل عيسى ابن هشام برفقة أحد باشوات مصر، بعد أن خرج هذا الباشا من قبره، وكان قد مات منذ زمن بعيد، ثمّ خرج يتجوّل في شوارع مصر ودوائرها الحكوميّة، ومنها المحاكم، ويصف لنا، بأسلوب أدبي ساخر، مظاهر التّحول السّلبي التي أصابت الحياة. كما تلقانا رحلة أمين الريحاني التي أسماها الريحانيات، وقد سجّل مشاهداته في بلدان عربيّة ووصف عادات أهلها، كما زار بعض ملوك العرب، ومن بينهم المغفور له الملك عبدالعزيز، وسجّل بعض أحاديثه وآرائه. وهناك كتّاب آخرون قدّموا أعمالاً كثيرة في أدب الرحلات، أمثال: زكي مبارك، كاتب مصري له ذكريات بغداد وذكريات باريس؛ ويحيى المعلمي، كاتب سعودي له رحلة علميّة ورحلات أخرى.

قراءة في رحّالة الغرب

إذا تأمّلنا سيرة الرحالة الغربيين الأوائل سنلاحظ أنّهم كانوا يقومون برحلاتهم رغبة في الحصول على المال، والذهب، والعطايا الملكية التي يمكن أن تعود عليهم من وراء اكتشاف جغرافي جديد؛ كما كان يتمنّى كريستوفر كولومبوس الإيطالي عندما كان يسعى للوصول إلى الهند طمعاً في كنوزها، فوصل إلى جزر الكاريبي في القرن الخامس عشر، وظنّ خطأً أنّها الهند.

ومثل فاسكو داجاما البرتغالي الذي اكتشف الهند فيما بعد عن طريق رأس الرجاء الصّالح في أواخر القرن الخامس عشر؛ ولن ننسى أنّه لولا مساعدة الرّحالة العربي أحمد بن ماجد لما وصل إلى الهند. ربما لم يكتب الرحالة الغربيون بأنفسهم عن هذه الرحلات، وإنّما كتب عنهم من عاصرهم وقتها.

وإذا قارنّا بين الدافع وراء رحلات الرحالة العرب، فسنجد أنّهم كانوا يسافرون طلباً

للحجّ أو الرزق أو العلم، إلى جانب الرغبة في المعرفة والاستكشاف ويبقى السّبق في هذا المجال للرحّالة العرب، فأوّل رحالة عربي كما ذكرنا هو ابن جبير.

أمّا الرحّالة المعاصرون سواء كانوا عرباً أم غربيين، فهم كتّاب بالدرجة الأولى، قد تسوقهم الظروف إلى بلاد معينة، فيكتبون عنها، أو يسافرون إلى أماكن بعينها بهدف دراستها والكتابة عنها.

ويمكن القول: إنَّ أدب الرحلات هو جنس في الكتابة الأدبيّة، يكاد يكون قد اندثر وتلاشى، ولكن إذا أعدنا النّظر في أدب الرحلة في العصر الحديث نلحظ تراجعه عمّا كان عليه في العصور السّابقة، وحتّى أوائل القرن العشرين، وذلك على الرغم من أنَّ العصر الحالي يُعَدُّ بحق عصر الرحلة والسّفر، لتوافر الإمكانات، والتّسهيلات العظيمة التي تشكّلت بحيث أصبح السّفر جزءاً من الحياة العاديّة للرجل العادي، والسّياحة بمظهرها الحالي غدت نقيضاً لما كانت عليه سابقاً.

وتأسيساً على ما سبق، نصل إلى نتيجة فحواها أن تمايز أدب الرحلة بين الماضي والحاضر يمكن حصره فيما يأتي:

منهجيّة الأسلوب: الرحّالة العربي لم يكن بالضرورة أديباً يجيد التّعبير بأساليب أدبيّة، وإنّما كان يهوى السّفر والتّرحال، ويحفظ مشاهدته في ذاكرته، أمّا الآن فعادة الأديب هو الشّخص الذي يسافر، ويكتب أولاً بأول مشاهداته بأسلوب بسيط، وأقل تعقيداً.

الجهد والوقت: الرحلة في الماضي كانت تكلف الرحالة جهداً، وتعباً شديداً، ووقتاً طويلاً، قد يصل إلى أسابيع وشهور للوصول إلى غايته؛ في حين أنَّ وسائل المواصلات المتطورة اليوم سهلت على الأديب التّنقل، ووفرت عليه الوقت وبعض الجهد، وإن كانت التّكلفة ربما أكثر بكثير منها في الماضي.

سهولة الطباعة: من السّهل أيضاً اليوم، الكتابات الأدبيّة بوجه عام بوسائل طباعة حديثة وأنيقة، في حين كان الرحّالة في الماضي يضطرون لتدوين كتاباتهم في مخطوطات كبيرة، وثقيلة، وبالطبع كان يصعب نسخها عدة مرات.

سهولة الانتشار: وسائل الاتّصال الحديثة ومنها الصّحف والإنترنت، سهلت إلى درجة كبيرة انتشار فنّ أدب الرحلات، سواء كان في صورة مقالات مقروءة، أو كتباً إلكترونيّة.

وفي نهاية الأمر، لا بدّ من التأكيد على الجهود المبذولة حالياً، والأعمال المنشورة هنا وهناك، من إقامة مؤسسات تُعنى بخدمة مثل هذا الفنّ، كي يبقى موجوداً يمارسه أهله، ويؤطره أدباؤه.

---

(١) أدب الرحلة في التّراث العربي، فؤاد قنديل، مكتبة الدّار العربيّة، ص٢٣.
(٢) أدب الرحلة عند العرب، حسني محمود حسين، المكتبة الثقافية، ص١٠.
(٣) انظر: رحلة الصيف إلى اليمن، ورحلة الشتاء إلى بلاد الشّام.
(٤) مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م، ص٤٠٣.
(٥) أدب الرحلات عند العرب، مرجع سابق، ص ٩٥.



الرحلة واللغة
لغة مالطة كما عايشها الشدياق

■ صالح بن محمد المطيري - السعودية

تنداح هذه العربية بكافة لهجاتها الإقليمية على رقعة واسعة من الأرض، تمتد من ساحل عُمان وغربي إيران شرقا، إلى سواحل المغرب وموريتانيا في أقصى الغرب؛ ومن الشمال من تخوم الأناضول وسواحل المتوسط، إلى الجنوب في بلاد اليمن في جزيرة العرب وواحات الصحراء الكبرى في إفريقيا، وفي كل قطر عربي ثمة لهجة سائدة على البلد بطبيعة الحال، وكذلك ربما وُجدت في البلد الواحد لهجات إقليمية تختلف عن بعضها بعضاً، كما هي الحال في البلدان الكبيرة، كالسعودية ومصر والسودان.

ومن بين لهجات العربية المعاصرة، تبزغ أمامنا تلك اللهجة أو اللغة السائدة في جزيرة مالطة؛ فهذه اللغة جديرة حقا بأن يطمح نحوها نظر الدارس اللغوي، وخليقة أن تجذب اهتمامه على نحو خاص. ومن العجيب أن كثيرا من العرب سيندهش إذا عرف أن جزيرةً في المتوسط -وهي دولة أوروبية الآن- تتحدث لغة تُعدّ من لهجات العربية! فكيف وصل لسان مضر إلى تلك الجزيرة في قلب المتوسط؟! ولكن هذا هو واقع الحال، فاللغة المالطية كما يقول المختصون إنْ هي إلا لهجة من لهجات العربية[١]، تشترك مع بقية اللهجات العربية في المعجم السائد (أي المفردات الأساسية)[٢] وفي كثير من الأصوات المفردة أيضا، كما أن جُل الكلمات الساميّة التي إن ردت بها هذه اللهجة لها تخريج من أصول العربية القديمة، لكن تختلف هذه اللهجة عن بقية اللهجات العربية في ضياع عدد من أصوات العربية الأصيلة مثل الحاء والخاء والعين والغين والقاف، كما تتميز باقتراض جمهرة من المفردات الأوروبية (إيطالية وإنجليزية)، وإدراجها ضمن البناء الصوتي للهجة، وفيما عدا ذلك فإن جُلّ المفردات الأساسية هي من العربية، إلا أن كتابتها تعتمد الحروف اللاتينية مثل سائر اللغات الأوروبية.

ونظراً لانقطاع الصلة الثقافية بين المالطية وبين أمّها العربية، فقد عدّها المختصون لغة مستقلة بذاتها وليست مجرد لهجة، علما أننا في هذا المقال قد نسميها

تجوّزا «لهجة» باعتبار أصولها التاريخية فقط، وإلا فلا مشاحة في اعتبارها لغة مستقلة؛ لأنها حقا قد انبثقت عن أصولها العربية، وانفصمت عن جذورها الثقافية.. وليست كبقية اللهجات العربية التي ما تزال تعيش في كنف العربية، وتتأثر بمحيطها الثقافي، وتستمد عناصر بقائها منه.

ولعل أهم نواحي انفصال المالطية وابتعادها عن أصولها العربية كتابتها بالأحرف اللاتينية منذ عام ١٩٣١م، وهذه الكتابة اللاتينية قد ضيعت صوتي الحاء والخاء في المالطية فأصبحا يرمز لهما في الخط اللاتيني برمز واحد، وهكذا نجد مثلا كلمتي خيط وحيط (أي جدار) تكتبان في هجاء واحد، ولا يفرق بينهما المالطي إلا من سياق الكلام، والحال نفسه في السين والصاد في نحو سيف وصيف، والعين والغين في نحو عالي وغالي[٣]؛ وهذا يعني أن الخط اللاتيني قد أفقد هذه اللهجة عددا من أصواتها الأصيلة؛ ما أسهم حقا في قطع الصلة بينها وبين أمها العربية، وفي هذا دليل واضح على عدم كفاية الهجاء اللاتيني في تمثيل أصوات العربية وغيرها من اللغات السامية، التي يمثلها الخط العربي على نحو واضح.

ونظرا لغرابة هذه اللهجة/اللغة وتميزها عن بقية اللهجات العربية في نواح عدة، فقد حظيت باهتمام خاص من الدارسين، وقد عدّها بعضهم من بقايا العربية التي سادت في جزيرة صقلية حينا من الدهر. وقد كَتب في علم المالطية وصرفها وأصواتها علماء لغويون مختصون من أبنائها ومن غيرهم[٤]، لكني سأتوقف هنا عند أول من كتب عنها من العرب، وأول من قُيّض له أن يعايشها بياض يومه وسواد ليله على مدى سنين، وينظرها بعين الخبير، وهو أحد رؤوس الكتاب في عصر النهضة العربية الحديثة، ألا وهو اللغوي الأديب الرحالة أحمد فارس الشدياق.

والمعروف أن أحمد فارس الشدياق قد ولد في لبنان عام ١٨٠٤م، وكان اسمه أول الأمر فارس، قال عنه مارون عبود: «أحد أقطاب الأدب العربي العظام، نِشأ في لبنان، وشب في مصر ومالطة، واكتهل في باريس ولندن وتونس، وشيّخ في القسطنطينية، فمات ابن ثلاث وثمانين سنة، ما أحوجته الثمانون إلى ترجمان، ولم تأخذ من ذلك الرأس شيئا، فبقي عوده غضا ونفسه خضراء، كما شهد بذلك جرجي زيدان»[٥].

والشدياق علامة لغوي جليل تدل عليه كتابته التي يولع فيها بإحياء أوابد العربية التي لا توجد إلا بين دفتي المعجم، كما يشهد له طائفة من الكتب وأهمها كتابه الذي تعقب فيه الفيروزآبادي صاحب القاموس وعنوانه (الجاسوس على القاموس)، وكان قد تأدّب بالعربية وفنونها في لبنان أولاً، ثم اشتد عوده بها، وثقِف كافة علومها في مصر على يد جلّة من الشيوخ، ثم قُيّض للرجل أن يضطرب في الأرض ويرحل إلى عواصم الغرب والشرق؛ وفي حله وترحاله كان الرجل يثاقف الناس ويخالطهم؛ فهو حقا رجل قد خبر البلاد والعباد.

وكما تقلّب في البلاد.. فقد تقلّب أيضا في الأديان، إذ نشأ مسيحيا إنجيليا محافظا، وحاول نفر من الرهبان أن يثنيه عن مذهبه، لا سيّما وقد شهد اضطهاد أخيه أسعد وتعذيبه

ثم موته ليتحوّل عن مذهبه، ولكن محاولاتهم في الاستحواذ على الأخ الأصغر فارس قد ذهبت أدراج الرياح، فتشبّث الشدياق بمذهبه، وشدّ رحاله إلى مصر في ريعان شبابه، وكان الرجل عارفاً بمذاهب قومه وعالماً بتراثه الديني المسيحي كله، ثم اختار له الله بعد أن تنفس به العمر أن يعتنق الإسلام، ويحسن إسلامه، بل انعكس ذلك على كتابته وأسلوبه، فترى فيه ملامح وأقوال وعبارات وكأنها تواجد من شيوخ الدرس في المساجد وحلق العلم، فسبحان مغيّر الأحوال.

وأثناء تقلب هذا اللغوي الرحالة في البلدان وبين الناس، كان كثيرا ما يرهف السمع إلى كلام العامة ولغطهم.. ويصغي إلى لغاتهم ولهجاتهم، فاستوعب منها الكثير، وقيّد في واعيته جملة صالحة من الخصائص اللسانية والسمات اللغوية لكلام الناس أينما كان، فلا غرو أن رأيناه يتوقف عند لغة مالطة -وقد لبث فيها من عمره سنين- فيصف لنا ما تتميز به هذه اللغة أو اللهجة، وما يراه من خصائصها، وما يظهر له من الأشباه والنظائر لها في لهجات العربية.. سواء القديمة منها أو الحديثة.

وبداية، لا بد من التوضيح أن الشدياق -الأديب الكاتب المترسل- لم يشد الرحال إلى مالطة مختارا من تلقاء نفسه، رغم ميله إلى النقلة والتحوّل، وإنما ذهب هناك بتكليف من المرسلين الأمريكان، وهم بعثة تنصيرية استقرت في لبنان منذ أوائل القرن التاسع عشر؛ ذلك أنهم رأوا تضلّعه في علوم العربية وعلوّ كعبه في الكتابة، فأوكلوا إليه أن يعاونهم في تصحيح مطبوعاتهم وفي ترجمة التوراة إلى العربية، وأن يقوم أيضا بتعليم العربية في «المدرسة الجامعة» في مالطة، فأرسلوه إلى هناك، فلبث الرجل في هذه الجزيرة أربعة عشر عاما بين عامي ١٨٣٤م و١٨٤٨م. ورغم أن الشدياق قد طال به المقام في مالطة، إلا أنه لم يحمد مقامه هناك، فلطالما وجدناه ينعي مقامه في هذه «الصخرة الدرنة» أو «هذه الصخرة الصماء» كما يسميها أحيانا.

وقد شرح الشدياق أحوال مقامه في مالطة في كتاب أفرده بالتأليف، عنوانه (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) أتى فيه على وصف البلد وجغرافيته ومناخه، وتحدث عن الناس وعاداتهم وطبائعهم وأخلاقهم وأنماط معيشتهم وطعامهم وشرابهم. والقارئ للكتاب يُخيّل إليه أن الشدياق لم يخرم من أحوالهم شيئا رآه أو سمعه، فهو حقا يمثل صورة متكاملة تصور الحالة الاجتماعية للشعب المالطي الذي عايشه الشدياق أربعة عشر عاما.

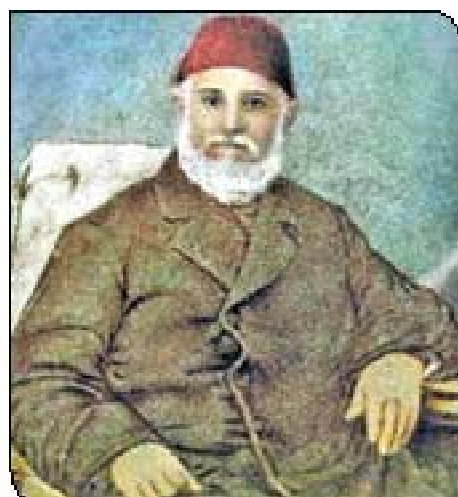
ولعل أدق ما في ملاحظات الشدياق عن الناس هناك هو ما سجله لنا عن طريقة كلامهم باللهجة المالطية، لاسيما أن الرجل قد اختلط بكل فئات الناس فيها، فقد اختلف إلى الخاصة، وجالس العامة، واستمع إلى حديثهم ودخل بيوتهم وأكل من طعامهم، وحضر الأسواق.. فتسمّع إلى لغط الفلاحين، وحفظ نداء الباعة، وأصغى إلى صخب أهل المرفأ، وتصايح رجال البحر، وعرف لغاتهم ولهجاتهم بل نكاتهم وأضاحيكهم، كما اختلط الرجل بالإنجليز في مالطة -وهم حكام الجزيرة وعلية القوم- سواء من العسكر أو من رجال الإدارة وقتها.

يقول الشدياق عن لغة مالطة: «اعلم رعاك

الله وصانك عن الزلل أن اللغة المالطية فرعٌ عن دوحة العربية وشيصةٌ من تمرها، وهي يُتكلَّم بها في جزيرتي مالطة وغودش (غوزو)، وسواءٌ في ذلك العامة والخاصة؛ غير أن هؤلاء يتعلمون أيضا الطليانية والإنكليزية لاحتياجهم إلى الأولى في المعاملات والتجارات وكتب الشرع، وغيرها، ولتنافسهم في الثانية لكونها لغة أرباب الحكم»[7]، وبهذا نرى أن اللغة المالطية كانت زمن الشدياق أشبه ما تكون باللغة المحلية للسكان، أي لغة البيت والشارع والسوق، أي لغة المحادثة العرضية بين الناس، وأنها كانت لغة منطوقة فقط وليس لها كتابة، أما لغة الإدارة والتجارة والقضاء فقد كانت الإيطالية أو الإنكليزية.

ولنا أن نتأمل وصف الشدياق للمالطية بأنها «فرع من دوحة العربية وشيصة من تمرها» (والمعروف أن الشيصة هي التمرة التي لم يتم نضجها لفساد أو سوء تدبير)، وفي هذا ينظر الشدياق إلى هذه اللهجة على أنها لهجة قاصرة قد لحقها فساد وانحراف عن الأصل الصحيح، وأنها عبارة عن ألفاظ يتداولونها (أي لغة منطوقة فقط) «فيما هو من مقتضيات الأحوال الساقطة»، وبطبيعة الحال كانت هذه هي النظرة القديمة (الكلاسيكية) لتطور اللغات واللهجات حتى بداية عصرنا الحديث، إذ كان اللغويون القدامى - ومنهم الشدياق بالتلمذة والتلقي - ينظرون إلى التطور اللغوي وإلى لهجات العامة على أنها ألسنة مليئة باللحن والخطأ والفساد[7].

كما يذكر الشدياق أن المالطية تأخذ من الإيطالية بعضا من المفردات وتسبكها في قوالبها الصرفية يقول: «وإذا أخذوا من



أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧م)

الطليانية ما مسّت الحاجة إليه ملطوه وألحقوه بتركيب لغتهم، كقولهم مثلا: (مايرنشيش) أي ما يوافق، و(كونشيته) أي عرفته. ففي الأول ياء المضارعة، وفي الثاني ضمير المتكلم وضمير الغائب، و(عندي بياشير) أي سرور»[8]، ويورد الشدياق هناك أيضا جمهرة من هذا الكلم الأيطالي المسبوك في قوالب المالطية، وفي هذا الاقتراض والسبك و(التملّط) ينشد الشدياق قائلا في وصف هذه الحال:

تبّاً لها لغةً بغير قراءة
وكتابة عِيٍّ بلا إنسان

تتبلبل الأفكار في تركيبها
ويكلّ عندها حدُّ كل سِنان

أذنابها ورؤوسها عربية
فسدت وأوسطها من الطلياني[9].

وكان أعيان الناس في مالطة أيام الشدياق يحبون الامتياز عن العامة - كما هي الحال دوما، فتجدهم «يحاكون الإفرنج في أطوارهم وهيئاتهم، حتى اذا نطقوا بلغة أنفسهم (أي

المالطية) زال عنهم ذلك الرواء، وانجلى ذلك الإبهام»؛ ما يعني أن المالطية كانت يوما لغة عاميّة يترفع عنها أو يتحرّج من استعمالها أولئك الأعيان من الطبقة الأرستقراطية أو علية القوم، وأنهم متى ما تكلموا بها فإنهم كالذي ينزل إلى مستوى العامة ويعود إلى الأصل، وهنا يردد الشدياق قول الشاعر:

كل امرئ راجعٌ يوما لشيمته
وإن تخلّق أحيانا إلى حينِ

طبعا تغيّر هذا الوضع اليوم، فأصبحت المالطية منذ عقود اللغة الرسمية للبلد يتحدث بها الكبير والصغير، والخامل والشهير، رغم مزاحمة الإنجليزية لها على نحو واسع وبخاصة في التعليم الجامعي.

ويسجّل لنا الشدياق في أيامه في مالطة بعضا من المفردات المستعملة في المالطية ليدلّ على قربها واتصالها بالعربية، فمن ذلك قولهم: «وحلَت بمعنى وقعتُ في أمر صعب، وأصله الوقوع في الوحل خاصة، وقولهم الطلّاب للمتكفّف أي السائل، ومغلوب بمعنى نحيف، وفْتيت بإسكان الفاء بمعنى قليل، وهو من فتّ الشيء بمعنى كسّره وصغّر جرمه»، قلت: نلاحظ إسكان الفاء هنا في فْتيت بمعنى قليل، وهذا الإسكان يحدث أيضا في بعض اللهجات القريبة من المالطية كالتونسية مثلا، ففيها كلمات مثل: كبير ونحيف وصغير كلها بإسكان الحرف الأول، والحال نفسه يحدث أيضا في بعض لهجات بلاد الشام.

كما نقل الشدياق بعض أسماء الفاكهة وأسماء السلع في سوق مالطة، مثل تُفّيح ورُمّين، أي تفّاح ورمّان لكنها تنطق بالإمالة نحو الياء، أي على طريقة قراءتنا للآية (بسم الله مجراها ومرساها) في القرآن الكريم[10]، ومن الفواكه الأخرى يذكر الشدياق: بَتّيح وحيار ولنجاس (إجّاص) ودليع (دُلّاع أي شمّام) وحوح (خوخ)، وأما حُبس فهو الخبز ولِلما يعني ماء. والشدياق ينقل لنا هذه الطائفة من الكلم المالطي متأففا من هذا المنطق الفظيع في نظره، يقول: «ومما يكره أيضا عدا طنطنة أجراس الكنائس المتتابعة أصوات الباعة الذين يطوفون في الأسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والماء، فإن فغْر أفواههم، ومطّ أصواتهم، وفظاعة لحنهم على اختلاف معنييه لممّا يُستعاذ منه. كيف لا وهم يقولون للتفاح تَفّيح، وللرمّان رمّين، وللبطيخ بتيح.. الخ»[11]؛ وهو يعد ذلك لحنا شنيعا ونُطقا فاسدا رغم أنه لهجتهم التي ولدوا عليها فحسب، غير أنه، وهو الأديب المترسل المرهف، ينضاف إلى سلك الأدباء الذين يتأففون من اللحن ويمقتونه إلا إذا صدر من الغيد الحسان والجواري الشواب كما هو معروف من مذهب الجاحظ[12]، فيكون هنا مستحسنا بل مرغوبا، وهنا ينشد الشدياق في مليحة مالطية:

بدتْ في الثياب السود والوجه زاهرٌ
وماست بقدٍّ يُخجل الغصن الغضا
لها منطقٌ عذبٌ على قبح لحنه
وفي حسن مَن تهواه عن لحنه إغضا[13]

كما يسجل الشدياق بعض الأفعال الشائعة التي سمعها في المالطية مثل تلا أي طلع، وسما أي سمع، وحرج بالحاء أي خرج، ويلاحظ هنا طبعا بداية تفريط اللهجة المالطية بالأصوات الحلقية أي منذ زمن الشدياق سنة ١٨٣٤م، ذلك التفريط الذي اكتمل لاحقا باعتماد

الأحرف اللاتينية، وهي كتابة -كما ألمحت- لا يمكنها تمثيل أصوات العربية على نحو واضح كالحاء والخاء والعين والغين والقاف والصاد والضاد، ولك أن تعد اعتماد اللاتينية بمثابة المسمار الأخير في نعش العلاقة بين المالطية وأمها العربية، وما الكلمات والأوزان العربية الباقية إلا شاهد القبر على تلك العلاقة التاريخية!

ويروي الشدياق شعرا لبعض أهل مالطة في أيامه، يقول: ومن سفهاء المالطيين من يدّعي النظم بلغتهم هذه الفاسدة، فمن ذلك قولهم:

ين حنيناساير نسافر
ساير نسافر ما ناحدكش ميعي

مور وهيا بالسلامة
الله يضمك في المحبة تيعي(١٤)

ويشرح لنا الشدياق أو بالأحرى يترجم لنا هذا النظم، فـ (ين) بمعنى أنا، و(حنينا) بمعنى يا حبيبي، و(ساير) بمعنى (رايح أسافر) في بلاد الشام والحجاز، أو (داير أسافر) كما يقال في السودان، و(مور) فعل أمر أي اذهبْ، و(هيّا) فعل أمر أيضا بمعنى أقبل، ولا زلنا على أي حال نستعمل هذه الكلمة في قولنا (هيّا بنا) للحض على الذهاب. وأما قوله: (الله يضمك في المحبة تيعي)، فهو دعاء وتوسل، و(تيعي) مثل (بتاعي) المستخدمة في لهجة مصر للملكية والإضافة.

وقد يتضح لنا البيتان من المفردات القريبة من لهجاتنا العربية، لكن المعنى العام طبعا تبدو عليه الركاكة بل التناقض، فتارة يتهدد العاشق محبوبه بأنه سيسافر ويتركه وحيدا يجتر آلام الفراق من بعده، ثم لا يلبث وشيكا في البيت التالي أن يدعوله بالبقاء في محبته! ومهما يكن الأمر فقد صدّرها الشدياق كما رأينا بقوله (ومن بعض سفهاء المالطيين من يدّعي النظم)، وإنما أوردنا ذينك البيتين لملاحظة المفردات الشبيهة بالعربية فقط. لكننا لا نعدم بيتين آخرين من المالطية يتراءى فيهما المعنى العام كما يتراءى لنا الآن ونحن نقرأ الشعر العامي المعاصر. يذكر الشدياق عن راويته المالطي قوله:

المحبوب تا قلبي سافر
ليلي ونهاري نبكيح

جعلتلو بدموعي البحر
وبالتنهيدات تا قلبي الريح(١٥)

ويعلّق الشدياق على البيتين: «وهو معنى حسن، ولكنه مكسور قبيح اللفظ والسبك»، وأقول إنه معنى واضح وشعر عامي مفهوم على أي حال، وقد غاب عن ذهن الشدياق رحمه الله أن النظم العامي لا يحفل أحيانا -أقول أحيانا- بقوانين العروض أو بمراعاة السبك واللفظ، لأن كلام العامة -في عرف اللغويين القدامى- كلام ملحون يُعدّونه لحنا وفسادا وانحرافا عن الأصل كما أشرت أعلاه.

ويتساءل الشدياق بعد أن استعرض جمهرة من الكلم المالطي هل المالطية لهجة مشرقية أم لهجة مغربية؟ والسؤال نفسه قد طرحه المختصون الذين درسوا هذه اللهجة(١٦)، ويخلص الشدياق إلى ترجيح أن تكون المالطية تمتّ إلى اللهجات المغربية أكثر من المشرقية، يقول: «والحاصل أنه لا شك في كون المالطية عربية، ولكني لستُ أدري أصل هذا الفرع أشاميّ هو أم مغربي؟ فإن فيها عبارات من كلتا

الجهتين والغالب عليها الثانية، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى، فيقولون مثلا القديس والقداس، والتقربن والأسقف وما أشبه مما لا يفهمه أهل المغرب»[١٧]، وهكذا يرى الشدياق أن صلة المالطية باللهجات المغربية أي لهجات الشمال الأفريقي أقرب من صلتها بلهجات الشام والمشرق، إلا أنه يستثني الألفاظ الدينية المسيحية، فهي في المالطية مثل ما هي في لهجات الشام، وهذا طبيعي لأن اللهجات المغربية ليس فيها ألفاظ دينية مسيحية؛ فليس فيهم نصارى متأصلون كما هي الحال في بلاد الشام.

ويورد الشدياق في وصفه للغة مالطة طرائق مما يعده أساليب مضحكة في كلامهم، وهي في الحقيقة أنماط لغوية، أو بالأحرى أساليب تخاطبية مما تنتهجه هذه الجماعة اللغوية أو تلك؛ فمن ذلك يقول: إذا ما أرادو توكيد الخبر كرروا اللفظ خمس مرات، كقولهم: ما ريتوش قط قط قط قط قط، وما يسوى شي شي شي شي شي، وما كان لي فلوس خلاف دا بز بز بز بز بز أي بس، وخاده كله كله كله كله أي أخذه[١٧].

وفي نهاية إبحاره في غمار اللغة المالطية يصل الشدياق إلى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية، ألا وهي إن بقاء العربية في مالطة ولو في وضعها ذاك لدليلٌ على قوة العربية وتمكنّها، يقول: «ثم إن بقاء اللغة العربية ولو محرّفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن فيمن تصل إليه من الأجيال، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول ودّوا لو يحملون أهلها على التكلّم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم ذلك، وبقوا محافظين على ما عندهم منها خلفا بعد خلف»[١٨].

وهكذا ورغم مرور أكثر من قرن ونصف القرن على معايشة الشدياق ووصفه للغة مالطة.. إلا أنها ما تزال تحتفظ بطابعها الصرفي العربي، وبمفرداتها ذات الأصول العربية، وكذلك بعبارات قريبة من نظائرها الشائعة في اللهجات العربية، لكنها الآن وإن كانت كلماتها المجرّدة مفهومة للعربيّ، إلا أنها في أسلوبها التخاطبي التلقائي غير مفهومة لأبناء العربية، نظرا لإدغام الأدوات في الكلمات أثناء الكلام، وتغير أبنية الكلمات، وشيوع الإمالة في كثير من الكلمات، فضلا عن استعمال مفردات أوروبية وصوغها في قوالبها الصرفية وغيرها. فمن أمثلة ذلك هذه الجملة بالمالطية: Kieku nirbah il-lotterija nikriha din id-dar[١٩] وترجمتها: متى ما ربحتُ اليانصيب فسوف أؤجر (أُكري) هذه الدار، فنلاحظ هنا قولهم (اللوتريا) وهو من الإنجليزية أي اليانصيب، وقد أدخلت عليها أل التعريف وزيد عليها مد بالألف لتناسب القوالب الصرفية، و(نكري) مفردة عربية قديمة بمعنى يؤجر، و(الدار) هي الدار. وفي مثال آخر من المالطية نجدهم يقولون:

Meta trid ejja ghamel weekend hawn?[٢٠]

وترجمته الحرفية: متى تريد أن تمضي نهاية الأسبوع هنا؟ والمقصود متى تستطيع قضاء العطلة هنا؟

وهكذا نلاحظ خصوصية اللغة المالطية وغرابة الخطاب بها على أذن السامع العربي، ما يجعل فهم الخطاب عسيرا على ابن العربية،

بل ومتعذرا إلا بعد دُرْبة ومِران، كمن يتعلم لغة أخرى تماما، وإن كانت الحال أيسر بالطبع، لتشابه كثير من الأصول بين العربية والمالطية كما ذكرت.

فهل يا ترى تحافظ هذه المالطية على البقية الباقية من أصولها العربية القديمة، أم أنها تطوي شيئا فشيئا تلك السمات اللغوية الساميّة وتنجذب أكثر نحو فضاء اللغات الأوروبية؟ وبخاصة تحت ظروف هذه العولمة التي لم تدع ركنا من العالم إلا طوته في خضمّها، وناهيك عن اختلاف المحيط الثقافي للمالطية، وبُعده عن ثقافة العربية ومحيطها، ذلك المحيط الثقافي الذي يستمدّ عناصر بقائه من خصوصية اللغة والدين والاجتماع.

---

(١) أحمد طلعت سليمان، اللغة المالطية وأصولها العربية، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٠هـ، المقدمة.

(٢) المفردات الأساسية في أي لغة تشمل كلمات مثل تلك التي تدل على أعضاء الجسم وأحوال الجو وأيام الأسبوع والأعداد والألوان والأفعال الشائعة وغيرها).

(٣) وهذه الأصوات الحلقية والمفخّمة (ح، خ، ع، غ، ق، ص، ض) التي لا يظهرها الهجاء اللاتيني قد اختفت أيضا تقريبا من نطق المالطيين اللهم إلا حالات قليلة مما يسجله الباحثون اللغويون عن بعض كبار السن، انظر Albert Borg, Lectal Variation in Maltese, in: Caruana et al, Variation and Change; the dynamics of Maltese in space, time and society, Academia Verlag, Berlin, 2011, p 16-17.

(٤) انظر مثلا: أحمد طلعت سليمان، اللغة المالطية وأصولها العربية، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٠هـ.

(٥) أحمد فارس الشدياق، الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبأ عن فنون أوروبا، حررها قاسم وهب، دار السويدي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م، ص ١١ (مقدمة المحرر).

(٦) الواسطة في معرفة أحوال مالطة، ص ٩٨.

(٧) وفي هذا الصدد يُذكر أن الشعبي مرّ بنفر من الموالي يتذاكرون النحو فقال: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده! (العقد الفريد ٢/٣٠٧).

(٨) الواسطة في معرفة أحوال مالطة، ص ٩٨.

(٩) الواسطة، مصدر سابق، ص ٩٩.

(١٠) سورة هود: ٤١.

(١١) الواسطة، ص ٦١.

(١٢) يقول الجاحظ: «واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد، وكما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السنّ، ومقدودة مجدولة، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح». البيان والتبيين ١/١٤٦.

(١٣) الواسطة، ص ٦٢.

(١٤) الواسطة، ص ١٠٥.

(١٥) الواسطة، ص ١٠٧.

(١٦) يخلص احمد طلعت سليمان إلى كون المالطية أقرب إلى لهجات الشمال الإفريقي، انظر اللغة المالطية وأصولها العربية، ص ٣٠٤.

(١٧) الواسطة، ص ١٠١.

(١٨) الواسطة، ص ١٠٩.

(١٩) الواسطة، ص ١١١، ويرى ألبرت بورغ أن انحسار الإسلام عن مالطة الذي حدث في القرن الثاني عشر الميلادي مع تنصير السكان المسلمين وطرد بعضهم قد أفقد المالطيين اللغة العربية الفصحى، وجعل اللهجة المحلية تسود وتسيطر شيئا فشيئا حتى أصبحت لغة مستقلة. انظر Albert Borg, Maltese as a National Language, in: Weninger et al, The Semitic Languages, De Gruyter Mouton, 2002, p 1035.

(٢٠) Antoinette Grima, Giving Compliments in Maltese, in: Caruana et al, Variation and Change, Academie Verlag, Berlin, 2011, p 48

(٢١) المصدر السابق.



أدب الرحلة وتأثيره في الأجناس الأدبية الحديثة

الحضور والامتداد في السردي والروائي

■ إبراهيم الحجري- كاتب وباحث من المغرب

توطئة

تؤكد أغلب الأبحاث والدراسات في مجال الأدب أن الأجناس الأدبية لم تولد من فراغ وليست مستقلة عن بعضها، بحكم أن الإبداع البشري سلسلة متواصلة من الحلقات يستحيل فصلها عن بعضها. وهذا لا ينطبق على مجال الإبداع الأدبي وحده، بل هو خاصية ترتبط بكل أعمال الإنسان؛ فدوما هنا أرضية لتطوير المتوصل إليه، ودوما هناك ركائز وأعمدة يؤسس عليها المبدعون إنتاجاتهم المتواصلة، ويشيدون عليها أنماطهم الجديدة المتناسلة من الأنماط التي كانت سائدة من قبل. وعليه، فإن الأجناس الأدبية الحديثة ما تناسلت إلا من رحم أجناس عرفتها الأجيال السابقة، ولم تعد بقوالبها وأمثلتها الشكلية والمضمونية قادرة على استيعاب الهموم والمطامح البشرية في نسخها المتوالية عبر الزمن؛ لذلك فالأنماط الأدبية تتبدل وتتغير قوالبها وموضوعاتها تبعا للحساسيات التي تنبثق عن العصر، وعن اهتمامات الناس في المرحلة الزمنية. وهذا لا يخص أمة دون أمة ولا شعباً دون شعب ولا نوعا أدبيا دون نوع آخر.

لقد بدأت الأجناس قليلة مع اليونان والإغريق، كما نصت على ذلك كتابات أرسطو وأفلاطون، وقبلهما مشافهات وخطب سقراط، ثم سرعان ما بدأت تتوالد تدريجيا مع الزمن إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه من أجناس وأنواع أدبية في عصرنا الحديث. لذلك، فقبل أن نتناول موضوع أدب الرحلات والأجناس الأدبية المعاصرة، نرى من اللازم طرح مجموعة من الأسئلة والإشكاليات المتعلقة بهذا الموضوع؛ من قبيل:

- هل الرحلة جنس أدبي أم نوع أدبي أم أدب عام؟
- هل يمكن عدّ الأجناس السردية العربية المعاصرة استمرارا لنصوص تراثية قديمة بشكل من الأشكال، وما درجة

إسهام النص الرحلي في ذلك؟

- أليست أغلب الروايات العربية والعالمية هي مجرد رحلات حقيقية أو متخيلة؟
- إذا ما سلمنا أن الرحلة نوع أدبي يندرج ضمن جنس كبير هو السرد، فإلى أي الأنواع تقترب الآن: السيرة الذاتية أم الرواية أم الاعترافات؟ أم أنها تظل رحلة فحسب، ولا يحق تصنيفها في أي نوع، ما دامت هي الأسبق تاريخيا؟
- هل يمكن تناول المكوّنات السردية في النص السردي الرحلي بالطريق نفسه التي تتناول بها في النصوص الروائية والقصصية والأسطورية والمسرحية، أم أن بناها المختلفة نسبيا تستوجب التفكير في نسق سردي منفتح يليق بطبيعة النص الرحلي شكلا ومضمونا؟؟

وإذا كانت الرحلة نوعا أدبيا متخللا تحضر فيه أنماط متعددة مثل الشعر، الحكايات القديمة، الأسطورة، الخرافات، الخطبة، الأمثال، الأحاجي، الحكم، الخبر الصّوفي، الأنساب، التّاريخ، الجُغرافية، التّراجم، الإثنوغرافيا.. ويتسع للمّ شتات أغلب الأنواع والأنماط الخطابية، فإنها أيضا، بحكم خصيصاتها النّوعية والأسلوبيّة، تمتلك مقدرة عالية على انتهاك حرمة النصوص، واقتحام الأنماط على اختلاف تلويناتها التي حددتها نظرية الأجناس والأنواع الأدبية، وسنقف هنا، على طبيعة حضورها في الشعر والرواية بوصفهما نوعين أدبيين معاصرين.



الرحلة والشعر في ديوان «دفتر العابر»

ينطلق عدنان من تصور للعالم الشعري يتأسس على رهانين: منح الأولوية للرؤية مقابل إرجاء التفكير في الجنس الأدبي، وتحيين الذاكرة الإنسانية من خلال لعبة الذهاب والإياب في التاريخ الذاتي والجمعي. وفي كلا المنطلقين، يجعل الشاعر الهوية محورا أساسا، يدور عليه فلك التجربة الإبداعية.

والهوية هنا هويتان؛ هوية الفرد الآتي من الهامش؛ الباحث عن الذات وسط غابة من الخيبات؛ وعن وهج يتشيّد من الأحلام والكلمات، وهوية أمة تُراجع بريقها بعد أن كانت بؤرة الضوء، وخُفُتَ صوتها بعد أن كانت سيدة للعالم في ما مضى. فما عاد هذا الوهج، بين فوضى التقاطبات والتحالفات، سوى ذكريات

مرة تتجرعها على مضض. وهذه هي الفلسفة الإبداعية التي انبثق عنها «دفتر العابر».

يتميز عالم «دفتر العابر» بكونه ينهض على سفريات شعرية، وجولات عابرة قام بها الشاعر لمجموعة من الآفاق والبلدان في أزمنة مختلفة ومتباعدة، تفرق بينها المسافة واللحظة والغاية، لكنها تتفق في معظمها حول الرؤية للعالم التي تصدر عن الشاعر، وتلتف حول كتلة لغوية واحدة ينسجها المتخيل الشعري.

وتحكم هذه الرؤية نزعة «الأنوية» التي تنتصر للذات الحائرة المغبونة في رصيدها الحضاري الذي أسهمت في ترصيصه أمام إصرار الآخر على الإنكار، مستمدة قوة حجاجها من خلال استحضار آثار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس وأوروبا عامة، مدعومة بما يصادفه الشاعر هناك من آثار شاهدة على الإسهام العربي الإسلامي في تشييد صرح الحضارة الإنسانية.. في وقت كانت فيه القارة العجوز تغط في نوم ثقيل وظلام دامس.

ينتقل عدنان من الجنوب المغربي المهمش الذي تكتسحه الخيبات، وتطوقه الصحراء إلى عالم أوروبا المدهش بحضارته وعلومه وانفتاحه وتحرره ونسائه الجميلات، فيجوب، مثل أي شاعر جوال، حانات مدريد، وشوارع باريس، ومقاهي فرانكفورت، ومعارض لندن، وغيرها من الفضاءات التي ما كان لها إلا أن تحرك دهشة شاعر قادم من عطش الأيام في منطقة اسمها «زاكورة»، مشبعا برغبات وأحلام لا حدود لها، زاده اللغة والذكريات، وتوق جوعاني للمعرفة والاستطلاع.

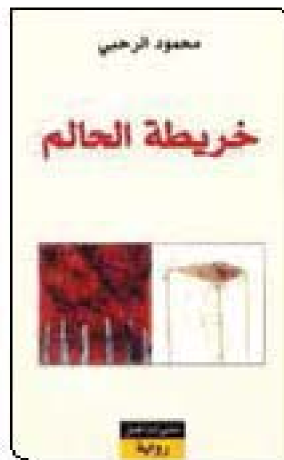
وفي كل تلك الجولات الماتعة والمؤلمة في آن، ما كان الشاعر يتحرك بجسده فحسب، بل كانت تتحرك معه أحلام أمة وذكرياتها. كان ينتقل من مكان إلى آخر، فيسير معه التاريخ والجغرافيا، وتسير معه مكتبته المرجعية التي تكون الخلفية الثقافية التي يصدر عنها انتقاداته ورؤيته للعالم البراني عنه، وكذا تناصاته ومادته اللغوية المصوغ منها المتن الشعري.

وبذلك، لم يكن العبور في المكان الآخر عبورا سلسا، بل كان صعبا تخلل الذاكرة والطفولة والأحلام والهوية، عبورا ترك أثره في اللغة والذات والعالم من حولهما، يقول الشاعر: «همس الجار الجنب:/ إنها قرطبة الآن/ ساعة أخرى من الركض/ أيها الفرس الهارب من ثيران مدريد/ ساعة أخرى ونترجل/ خفافا/ بباب القصر/مساء الخير اشبيلية/مساء الخير أيها الوادي الكبير/أهلا Sevilla...» ص ١١٢.

يزخر الديوان الشعري الذي ينوع بين السرد والشعر تبعا للحمولة الشعورية وتدفقها؛ انفعالا بالمشاهد التي يتلقاها الشاعر في رحلته العابرة للقارات؛ بالكثير من المؤشرات التي تبدي أسفه على تفريط العرب والمسلمين في الفردوس المفقود، وتخليهم عن مشعل الحضارة، وبخاصة أنه يصادف في شوارع أوروبا وكثير من فضاءاتها آثار الفترة الزاهرة للحضارة العربية الإسلامية، فيكون ذلك مدعاة لاستعادة التاريخ المجيد، بقاماته الشعرية التي تؤثث ذاكرة الشاعر؛ فيتناص مع مقولها الشعري الطافح بالدلالة والمعنى، ويسترجع

السياسيين والشعراء والفلاسفة ولحظاتهم المشعة والقاتمة، مبيناً أثر التراجع العربي الإسلامي على نفسيته بوصفه زائراً لبلاد الغرب، ويقارن بين وضعه ووضع كثير من الرحالة الأدباء العرب الذين جابوا العالم في عهد الإمبراطورية الإسلامية مثل ابن بطوطة، وابن جبير، وابن فضلان، وابن خلدون... يقول عدنان: «في مطارات العبور/نعلق شخيرنا/على أول بوابة/ لكيلا يصدأ بين جفوننا/ النعاس (...) اخرج من غيبك/ أيها الفارس الجوال/ وترجل إلى حين (...) فهدنتك الصغيرة هنا/ في صالة الترانزيت/أشبه/بأغنية حزينة/أشبه بعزف على ناي أعمى/ وسط قبيلة طرشان (...) كنت غريباً كحكاية غريبة، وحيداً كبطل خارج من الحبكة/ متعباً/ كما يليق برحالة قروسطي/ وكنت أقرأ ابن خلدون...» ص ص ٥٦- ٥٧- ٥٨- ٦١.

كانت رحلة عدنان الشعرية، على غرار كل رحالة العالم، مليئة بالتأمل في تحولات الزمان والمكان، وكأنه آخر شاعر أندلسي يمر من هناك، آسفا على الذي جرى؛ يمر سريعا بالمكان الذي يجعله مثقلا بالمشاعر والعواطف المفارقة؛ بقدر ما يهزه الفرح بالمكان، يتملكه حزن دفين، بل ألم كتوم؛ وهو يرى آثار أجداده شاهدة على الضعف، وفاضحة ترهل الزمن العربي. لذلك كان يُضَعِّفُ، حينا، من إيقاع



الصورة الشعرية ليصل بها درجة رفيعة من الامتلاء، ويهبط بها، حينا آخر، لتصل مستوى التقرير؛ وهذا ينسجم مع طبيعة تحول لحظة الشاعر من المنفعل بالحدث إلى واصفه، ومن المشاهد المحايد إلى المتأمل المتأثر. يقول منفعلا: «كم كانت الأندلس بعيدة؟/ أما أنا فقد قصدت الفندق عارياً/ بلا أجنحة/ فارغا من الحكايا/وكانت/ الصور القديمة قد تخثرت/ بين عيني/ ثم/ رحلنا إلى جنة النار/ كنا نقلع دالية الموشح/ فنتعثر بالدنان/ نتفقد طوق الحمامة فيغلبنا/ الهديل/ نبكي غرناطة فنشتهي/ الرمان/نرثي رندة/ونترحم على أبي البقاء/كأننا لم نغادر قط/كأننا/ما زلنا هناك» ص ٢٧-٢٨.

الرحلي والرؤائي في «خريطة الحالم»

يضعنا عنوان رواية «خريطة الحالم» للكاتب العُماني «محمود الرحبي» أمام مساءلة كبرى لهوية الملفوظ وإمكانية تأمل مراميه وغاياته الملتبسة الدلالة؛ فحتما هو عنوان شاعري، لكنه يملك إمكانية كبرى على التزحلق خلف ظلال المعاني المشتبكة بالذات والكون الذي تنتمي إليه هذه الذات. إنه يرتبط بنظرة الذات إلى العالم من خلال ملفوظ الخريطة التي تقترح بديلا لما هو كائن، والخريطة هي فلسفة سياسية أكبر منها أنطولوجية، لذلك فهذه المقولة هي أقرب إلى وضع تصور مغاير يحمل رؤية نقدية موازية. وله علاقة أيضا بالذات

من خلال كلمة «حلم»، فالحلم أقرب المكونات إلى التقاط صور الذات الهاربة والمستترة والمتداخلة. وهذه الرواية.. وإن كانت أقرب إلى السيرة الذاتية أو المذكرات اليومية، فهي أيضا رواية سجالية تجابه أسئلة الذات ومكوناتها الفلسفية بمنطق الحوار والعقل والحياد، وتلامس فكرة العنصرية والتطرف والأحكام المسبقة التي توقع الذات في الغالب في أخطاء جسيمة قد تؤذي بصورة الثقافة والإنسان، وهي هفوات في التفكير يؤدي إليها التعصب الجاهلي للفكرة والأنا، ليضع الصورة العامة في تشويش خطير واهتزاز مرعب قد يكلف الحضارة قرونا من الزمن لتداركهما.

يتمظهر العامل الذات، بطل الرواية، في صورة شاب في مقتبل العمر يعمل مؤذناً وأستاذاً لعلوم الدين بحسب اختصاصه في الشريعة الإسلامية، وكان راضياً ومستكيناً إلى هذه الحياة الهادئة الساكنة والروتينية في آن معاً، إلى أن يأتي يوم يتلقى فيه رسالة من الموارد البشرية لدولته تطلب منه أن يعد نفسه للسفر إلى نيوزلندا، فيخبره المسؤول في الوزارة أن لديهم برنامجاً لتأهيل بعض أئمة الجوامع لدراسة اللغة ثلاثة أشهر وهمس في أذنه «سافر تغنم».

تبدأ رحلة العامل الذات إلى الفضاء الجديد، عندما يسافر ويتعرف إلى هذا العالم المختلف من خلال تفاعله مع المحيطين به من المرأة العجوز التي سكن في دارها، ثم المعهد الذي يتعلم فيه اللغة، وكذا الأصدقاء المتحلقين حول طاولة العشاء في المساء.. فكان أول شيء أدركه هو دقة التخطيط لدى الآخر النيوزيلندي وضبطه للمواعيد: الحافلة تصل في موعدها، حياتهم خالية من تشنجات القلق، الوضوح هو أساس كل العلاقات، استيعاب الآخر بنقائصه.

وهنا تلعب الذاكرة دوراً حاسما في حياة العامل الذات في الرواية، إذ يستحضر متراكمه السابق عند كل منعطف، ليأخذ دور المرآة العاكسة لصورة ماضية – حاضرة لفرد يتماهى في جماعته الدينية – ذات الأصول الإسلامية الراسخة، وما بين حضارة هذا المجتمع الذي يتخذ من القانون الذي ترعاه الدولة، والذي يتسم بالديمقراطية أساساً لرقابة النفس ومحفزاً قويا لدى الناس العاملين: «لذلك، فإن الفرد يكون المحامي المباشر لنفسه ولدولته، فتكون بذلك الراحة ثمناً في حد ذاتها، وليست نتيجة لإرضاء أحدٍ أو مسؤول».

وتشكل الذاكرة زاد الهوية الشخصية للعامل الذات، بحيث، بات مهووسا بمقارنة ما يعيشه في بلده، وما يراه مُسطرا أمامه على أرض الواقع، فعلم أن كثيرا مما يصله عن هذه المجتمعات هو مجرد إشاعات مغرضة، فوجد أن هذا المجتمع منظم بشكل جيد، ومهيأ بما فيه الكفاية لامتصاص نقط التشنج وبؤر التصدع المحتملة.

إن النيوزيلندي، كما صورته الرواية، لا يعيش على ما لا ترسمه الذاكرة، بل يعيش حاضره، وهذه العملية لا تغطي الجزء الثقافي من الماضي، بل أيضاً الجانب الاجتماعي والسياسي منه، وهنا يصحح بطل الرواية أفكاراً خاطئة كان قد تلقاها في حياته السابقة عن عقيدة النيوزلندي، وتتجلي هذه الحقيقة

بوضوح عندما تخبره المرأة العجوز التي يقيم في بيتها «بأنها تحترم ديننا وتعرف منذ زمن بعيد عبارة «السلام عليكم» وكلمة «القرآن» (...) وأخبرتني بأنها تقضي نصف نهار كل أسبوع للتعبد في الكنيسة، وهذه المدة تراها كافية للخلو والتقرب إلى الله...»».

تمثل «خريطة العالم» أكثر من رواية. هي اكتشاف هام للمختلف عنا، وإنصات عميق للذات وهي تجابه الآخر وتصاديه، فلكي نفهم النيوزيلندي أكثر، يتوجب علينا أن نتعرف على البنيات المعرفية التي يعيش في إطارها النيوزيلنديون، وطبيعة المؤسسات التي تقوم عليها الدولة، فقوة هؤلاء محصلة من التجربة التاريخية المتميزة والجهد المتواصل لإعادة تأهيل الأسس المتينة للدولة، بشكل يضع نصب الأعين طبيعة العصر، والأزمة التي يواجهها، وهذا هو سر نجاحهم وتميزهم عن الآخرين.

على مستوى الخطاب السردي، تدخل الرواية ضمن ما يدعى بالمحكي الذاتي، إذ يروي السارد حكايته بضمير المتكلم، على شاكلة المذكرات أو السيرة الذاتية، وفعلا، تصنف هذه المرويات، لولا المقولة التجنيسية التي ذيّل بها الكاتب مؤلفه، ضمن جنس السيرة، لكون الراوي يحكي يومياته في شكل مسرود شخصي بشكل تعاقبي، يحترم الصعود في الزمن والحركة في المكان. الراوي هنا يقوم بوظيفتين:

- وظيفة الحكي، إذ يروي مشاهداته وما صادفه من أحداث في المقام النيوزيلندي بضمير المتكلم.
- وظيفة الفعل، إذ يشارك الراوي في بناء الأحداث بتفاعله مع الوقائع، وتعالقه مع باقي الشخوص الروائية التي أسهمت في تحريك العالم السردي «العجوز، الأصدقاء، الخال، المضيفات، رجال أمن الطائرة، الأصدقاء، الصديقة التي تعرف عليها وأحبها هناك في نيوزيلندة...».

ومن منظور آخر، أعتبر أن النص عبارة عن رحلة ذاتية من البلد الأصلي للكاتب إلى بلدة نيوزلندة التي لم يكن يعرف عنها شيئا، بل هم الآخرون لا يعرفون شيئا عن بلده كما يصرح في إحدى المقاطع بأنهم لا يعرفون إلا دبي ومصر بحكم منظر الأهرامات. وعليه فالنص له ميزة أدبية وقيمة إثنوغرافية لا يستهان بهما في هذا الزمن، إذ بالرغم من سيطرة وسائل الإعلام، فما زال الكثيرون لا يعرفون بلدانا برمتها ولا حتى مواقعها على الخريطة.

حمل النص - بوصفه عملا سخّر جزءا كبيرا من محكيه للمقارنة بين البلدان ووصف عادات الشعب المضيف وتقاليده وثقافته وجغرافيته - الكثير من المواد التي تسمح بأخذ فكرة ولو مبسطة عن ثقافة الشعب النيوزيلندي، ودياناته، وأخلاقه، ومستواه الحضاري، وهذا الدور الذي لعبه الرحالون المسلمون والعرب في القرون الوسطى، حيث كانوا من جهة يعرفون بالإسلام والحضارة الإسلامية؛ ومن جهة أخرى، كان ينقل إلى المسلمين صورة عن ثقافة الشعوب التي رحل إليها أو أقام فيها مددا متفاوتة من الزمن، وكان ابن بطوطة

الرحالة المغربي الشهير أول من طرق أبواب هذه البلدان البعيدة، وعاشر أقوامها، وعرف فيها بالإسلام. ولعمري إن هذا النص يسعى إلى القيام بالجهد نفسه، من خلال هدمه للصورة النمطية التي نكوّنها خطأ عن الإسلام، وكذا من خلال وضع الهوية الذاتية في ميزان المقارنة.

لقد وصف المجتمع النيوزيلندي من حيث ثقافته المتشبعة بروح العصر والمسايرة للركب، كما وصف القوم بكونهم أناسا يحترمون أنفسهم بقدر ما يحترمون الآخرين، ويأخذون الأمور كلها بعين العقل، ويضعون الأفكار والقرارات في مصفاة المنطق الذي يحكمه العصر، من دون تعصب أو تطرف للذات والهوية والقضية.

ومن ناحية أنثروبولوجية، وظف الروائي منظور الأسرة الأبيسية في التنشئة الاجتماعية والثقافية للفرد، فالخال، وهو المهيمن على ابن الأخت حد التماهي.. من حيث ما تتداوله النظم والأعراف، لكن هنا الكاتب يكسر هذا العرف بنظرته النقدية التي تحول المنظور الخالوي (نسبة إلى الخال) إلى منظور ضيق لا يتوافر على أدنى شروط الحياد والموضوعية والعلمية.

لقد لعب محمود الرحبي في هذه الرواية القصيرة على واجهتين: واجهة الرواية كشكل مهيمن الآن على الساحة، بالنظر إلى مستوى التداول مقارنة مع باقي الأجناس الأدبية، وفي الوقت نفسه يراهن على أفق الرحلة الذي عاد الآن بقوة إلى الواجهة بحكم ما يتضمنه من أبعاد جمالية ودلالية تحتاجها الأسئلة البشرية الآنية. الأمر الذي منح هذا النص الروائي نكهة قرائية مميزة، تراهن على المعنى، من دون أن تنسى نصيبها من الجمال.

خاتمة

إذا كان أدب الرحلات قد حقق في القرون الوسطى تراكما مهماً، جعله يصبح ظاهرة أدبية وجنسية، فإنه مع مرور الزمن، ومع تطور نظرية الأجناس، والتحوّلات التي عرفتها الأنواع الأدبية، استطاع نوع الرحلة، بوصفه نوعا سرديا، أن يجد له آفاقا متعددة، ويتنفس أهوية جديدة؛ إذ، أصبح نوعا متخلّلا يجد له مسربا في كل الأنواع الأخرى.. سواء منها ما يندرج ضمن جنس الشعر أم ما يندرج منها ضمن جنس السرد[1].

لذلك، أصبحنا نجد أثر الرحلة في الأشعار والروايات والقصص القصيرة والمسرح واليوميات والسيرة الذاتية وغيرها.. إنها تصنع حضورها المتميز عبر الأزمنة، وتنحت حياتها في كل الخطابات، ما يدل على أن الإنسان سيظل رحالة في فكره وسلوكه وكتاباته، مهما تطورت حضارته. فالشاعر يخلد رحلاته في قصائده؛ والقاص يسرد رحلة تحول حياة شخوصه من حالة إلى أخرى، وكذلك يفعل الروائي، والكاتب المسرحي. وكأن خطاب الرحلة ركيزة الأنواع الأدبية كلها.

(١) تعد نظرية الأجناس أن الأجناس الأدبية تتلخص في صنفين: الشعر والسرد؛ وما دونهما فهي أنواع تندرج ضمنهما..



الرحلة في طلب العلم: شاقة وشيقة

■ الزبير مهداد - من المغرب

كانت الرحلة منذ عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، أداة مشوّقة ومغامرة مثيرة لأجل كسب المعرفة. وبعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تواصلت الرحلات، فشهدت بلاد الحجاز طوفا هائلا من جميع الأمصار الإسلامية للحج، أو لسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وجمعها من أفواه الصحابة.

ظل الحجاز مقصدا للرحلات، وكانت عاطفة المؤمنين الدينية تدفع بهم للرحلة إلى البيت الحرام، وأداء الفريضة، وهذه المناسبة لم تكن دينية فحسب، بل كانت فرصة للتلاقي والتبادل الثقافي بين أجيال الأمة وطوائفها ونخبها العلمية.

رحلات طلب العلم

أما الرحلات الخاصة بطلب العلم، فهي الرحلات التي يكون دافعها لقاء المشايخ والأخذ عنهم، والرجوع بالإجازات التي تخوّل طالب العلم نشر العلم الذي تلقّاه وروايته. فتوجّه أصحاب البلاد المفتوحة في آسيا وإفريقيا وأوروبا إلى عاصمة الخِلافة، وإلى مكة والمدينة، بصفتهما مركزيّ الدعوة، ومستقريّ الصحابة، وموطنيّ فطاحل اللغة وحفظة الشعر، والقراء، والفقهاء، وغيرهم.

وكان الرأي السائد أن مَن رحل للدراسة خير ممن لم يرحل؛ لذلك اهتم المسلمون بالرحلات العلمية، وعدوها من أنفع الطرق في طلب العلم واكتساب المعارف، ووسيلة مهمة للتحقيق العلمي وللاتصال بالعلماء. وجعل العلماء «الرحلة» مناط الثقة بالعالم، لذلك تنافست النخب الثقافية من أهل المغرب والأندلس على الرحلة في طلب العلم، تؤهلهم لنيل المكانة المهمة والتقدير في بلادهم أثناء عودتهم؛ إذ كانوا يدركون بأن الرحلة، محنة وامتحان، تعود عليهم بالفائدة سواء في الرصيد المعرفي أو بالحظوة لدى الملوك الخلفاء، الذين كان الكثير منهم يقدر العلماء، ويحتاج إليهم لدعم القدرات التدبيرية لمؤسساته القضائية والإدارية والمالية وغيرها، فيعين حملة العلم في هذه الوظائف المهمة.

مراكز العلوم

كان الحجاج يتوافدون إلى مكة والمدينة المنورة لأداء مناسك الحج والاجتماع إلى الصحابة والتابعين والعلماء، وكانت المدينتان مركزيْ الإشعاع ومهوى أفئدة المؤمنين، ثم تفرّق كثير من الصحابة عبر الأمصار ضمن الفاتحين، أو المبتعثين لنشر العلم بين الناس، فذهب عبدالله بن مسعود قاضياً إلى الكوفة، وانتقل أنس بن مالك إلى البصرة ليفقه الناس، وفي دمشق كان أبو الدرداء، وتوجه معاذ بن جبل إلى فلسطين، وعبدالله بن عمرو بن العاص صحب أباه إلى مصر، فجعلوا من مقاماتهم مراكز إشعاع علمي، فسعى إليهم الناس ليتلقوا عنهم الرواية والعلم.

وكانت الرحلات طلبا للعلم، تسير غالبا من المغرب إلى المشرق، وأحيانا من المشرق إلى المغرب. كما كانت إلى جانب هذه الرحلات بين المشرق والمغرب رحلات داخلية بين أقطار الغرب الإسلامي كله (بين المغرب والأندلس وتونس)، أو داخل القطر الواحد منها.

الرحلات من المغرب إلى المشرق

اشتهر علماء الغرب الإسلامي (المغرب والأندلس) بولعهم الكبير بالرحلة، وخاض الكثير منهم غمارها، كانوا يشدون الرحال لأداء فريضة الحج، والتملي بزيارة الأماكن المقدسة، وكثيرا ما كانت الرحلة الحجية تقترن بطلب العلم، ولقاء العلماء والأخذ عنهم، وزيارة البقاع المقدسة.

ويعد أبو الحسن القابسي (ت٤٠٢هـ)، من أبرز الذين رحلوا إلى المشرق، فحجّ وسمع من طائفة من المحدثين والفقهاء، وحين عاد إلى بلده القيروان، أصبح مجلسه مركزا علميا يستقطب طالبي العلم، فرحل إليه كثير من طلبة العلم من الأندلس والمغرب.

والباجي (ت٤٧٤هـ) زار الشرق وتفقه بعلماء كبار في دمشق وبغداد والحرمين، وعاد إلى الأندلس بعلم غزير، فكان له دور بارز في النهوض بالحركة العلمية في الأندلس، وتفقه عليه خلق كثير من العلماء.

وأبو بكر بن العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ) رحل بدوره إلى المشرق مراهقا بصحبة والده عام ٤٨٥هـ، فزار عددا مهما من المراكز العلمية الشرقية، ولقي علماء أمثال الغزالي والتبريزي والشاشي، واحتل مكانة علمية مرموقة في الأندلس بعد عودته إليها.

كما رحل ابن جبير (ت٦١٤هـ) ثلاث مرات، فزار مصر والحجاز والشام، ولقي عددا من العلماء، وعاين مظاهر الحياة العلمية والثقافية في المشرق، ودون ذلك في مذكرات رحلته، التي استفاد منها عدد كبير من المفكرين والباحثين أمثال العبدري والبلوي والمقريزي والمقري وغيرهم.

وابن رُشَيْد الفهري (ت٧٢١هـ) الذي كان خلال رحلة حجه حريصا على ملاقاة علماء المشرق في كل بلد زاره، كمصر والشام والحجاز وتونس، لأجل تعميق تكوينه العلمي، ورجع إلى بلاده بأسانيد عليا وثروة علمية أهّلته لاحتلال مناصب مهمة في الدولة المرينية بفاس.

والتجيبي (ت ٧٣٠هـ) دوّن في برنامجه أخبار رحلته، ومَن لقيه من العلماء الذين ترجم لهم بأسهاب، ولم يخل مصنفه من حديث عن الحياة العلمية ومؤسساتها في الدول التي



زارها.

وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) أيضاً صاحب رحلات شهيرة، سعى فيها لطلب العلم، وما يمنحها أهمية هو أنها تتضمن كثيراً من المفاتيح المُعينة على فهم تاريخه ومقدمته الشهيرة، وربطها بالظروف الزمانية لعصره، والأصول الثقافية التي متّح منها آراءه.

الرحلات من المشرق إلى المغرب

كما أن علماء مشارقة كثيرين، كانت لهم رحلة معاكسة نحو بلاد الغرب الإسلامي، كانت غايتهم قاصرة على طلب رواية أو سند، أو نشر علم، ونذكر منهم: حنش بن عبدالله ابن عمرو بن حنظلة الصنعاني، تابعي، دخل الأندلس في جملة مَن دخلها خلال الفتح، بنى جامع سرقسطة وتوفي سنة ١٠٠هـ[1]. وعبدالرحمن بن عبدالله بن بشر الغافقي: تابعي، دخل الأندلس في جملة الفاتحين، توفي سنة ١١٤هـ[2]. وأبو عبدالرحمن عبدالله ابن يزيد المعافري الحُبُلِيّ، تابعيٌّ دخل الأندلس[3].

وتعاقب بعدهم على الرحلة إلى الأندلس علماء آخرون، منهم معاوية بن صالح الحضرمي، الشامي الحمصي (ت ١٥٨هـ)، كان من أوعية العلم، رحل إلى الأندلس وشدت إليه الرحال في مقامه الجديد، سافر زيد بن الحباب (ت ٢٠٣هـ) من الكوفة إلى قرطبة للقائه والرواية عنه[4]. وحسين بن محمد القرشي المرواني، من أهل حران، وَفَدَ على الأندلس نحو ٢٥٠هـ، ولي قضاء بجانة[5]؛ وأبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل الأنطاكي (ت ٢٧٧هـ)، قدم إلى الأندلس سنة ٣٥٢هـ، وأدخل علما جما، فأكرمه الخليفة المستنصر بالله[6]؛ والمحدث أبو الفتح نصر بن الحسن التنكتي الشاشي (ت ٤٨٦) حلّ بالأندلس وروى فيها الصحيح[7]، وآخرون غيرهم جعلوا من الأندلس مركزا علميا مهماً.

وامتد توافد علماء المشرق على بلاد الغرب الإسلامي إلى عهود متأخرة، فقد ورد على المغرب المحدث محمد صالح بن خير الله الحسني الرضوي البخاري السمرقندي الذي قدم إلى فاس خلال الأربعينيات من القرن

الماضي، واتصل بعلماء القرويين[٨]، كما زار المغرب الأقصى مرتين (١٢٨٧هـ و١٢٩٧هـ) مسند المدينة المنورة علي بن ظاهر الوتري (ت١٣٢٢هـ)، فأخذ الحديث عن قاضي فاس محمد بن عبدالرحمن العلوي، وقاضي مكناس المهدي بن الطالب بن سودة وغيرهما[٩].

عوامل ازدهار الرحلات

وكان للخلفاء المسلمين دَورٌ كبير في تشجيع طلاب العِلم على السفر إلى مراكز الحضارة والثقافة، فرحبوا بهم، ووصلوهم بهباتهم، وأنشأوا لهم دورا لإيوائهم، ومدارس ومكتبات، فنشطت الرحلات إلى هذه المدن العلمية التي أصبحت محط رحال طلاب العلم. فما جعل الأندلس، على حداثة عهدها بالإسلام وبالثقافة العربية، أرضا تعج بالعلماء من كل حدب وصوب، إلا إكرام المستنصر لهم، إذ أصبح بلاطه قبلة لعلماء المشرق والمغرب على السواء.

كما ساعد على إقبال المتعلمين على الرحلة العلمية وكسب جوار الجوامع الشهيرة والمدارس وجود الأوقاف التي كانت تضمن جرايات مهمة للطلبة، تشجعهم على الإقبال على الدراسة وتستقدمهم من بلاد بعيدة، وهذه كانت غاية نور الدين الأيوبي حين عين للمغاربة خاصة أوقافا مهمة، بغية استقدامهم إلى مصر لطلب العلم وتنشيط الحركة الثقافية والعلمية والتبادل المعرفي والتلاقح الثقافي، وهو ما أثبته ابن جبير في كتاب رحلته، معربا عن إعجابه بهذه المبادرة الثقافية المهمة، ووجه دعوته إلى المغاربة يستحثهم للرحلة إلى هذه البلاد وطلب العلم بها.

وكان ركب الحاج يضمن فرصة مهمة لطلبة العلم يسافرون خلالها صحبة الركب متمتعين بفرص السفر الآمن التي يوفرها طيلة مدة السفر، ذهابا وإيابا، وذلك ما شجع على الإقبال على الرحلة في طلب العلم صحبة الحُجّاج. كما أن توافر الأمن والاستقرار السياسي في المدن التي تشكل مراكز علمية، أسهم في استقطاب طلبة العلم إليها، ليتعلموا في ظروف آمنة، وليشبعوا نهمهم العلمي ويحققوا طموحهم إلى الارتقاء الاجتماعي.

الرحلة قطعة من العذاب

سلك المغاربة والأندلسيون طرقا متعددة في رحلاتهم إلى المشرق، فهناك من سلك طريق البحر بالركوب إلى مصر، فبلاد الشام عبر سيناء أو بلاد الحجاز عبر بحر القلزم؛ وكان هذا الطريق الأخير يسلكه غالبا الأغنياء.. إلا أنه كان محفوفا بالمخاطر، إذ غرق العديد من السفن وسقط العديد من الكتب في أعماق البحار، مثل السفينة التي كان على متنها أفلح مولى الناصر الذي غرقت جميع كتبه في البحر[١٠]، والسفينة التي ركبها عبدالرحمن ابن موسى الهواري خلال عودته إلى الأندلس عطبت فغرقت كتبه[١١]. وعبدالعزيز بن علي الشهرزوري، قدم الأندلس سنة ٤٢٦هـ، ودخل (دانية) وركب البحر منصرفا منها إلى المشرق، فقتله الروم في البحر سنة ٤٢٧هـ وقد قارب المائة[١٢].

وهناك العديد من العلماء توفوا أثناء رحلتهم مثل عبدالله بن محمد بن قاسم المعروف بابن ملول من أهل وشقه الذي توفي في المشرق سنة ٣٥٠هـ[١٣]، ومنهم مَن لم يستطع العودة بسبب

الضعف والوهن والكبر في السن، واستقر أو استوطن هناك، مثل أبو عبدالله محمد بن صالح القحطاني، الذي استوطن بخارى إلى أن توفي بها سنة ٣٧٨هـ [١٤]. وكذلك ابن جبير، فقد توفي في رحلته الثالثة ودفن في مصر بعيدا عن موطنه وأهله، وأبو بكر ابن العربي الذي توفي والده في الاسكندرية، وكان الفقد سببا كافيا لابن العربي ليعود إلى بلده.

أما الطرق البرية فكانت بدورها محفوفة بالمخاطر من قبل اللصوص وقطاع الطريق، من ذلك ما حدث لأحمد بن مسرة (ت٣٢٢هـ)، وكان معه في الرفقة في طريق مصر عبيد الله الشيعي، فتعرضا للسلب[١٥]، والخوف من السلب والامتحان في الطريق، هو الذي جعل طلبة العلم يؤثرون الخروج مع ركب الحاج، لضمان رحلة مأمونة، ويدل على هذا ما ورد في كثير من التراجم المغربية عن حجّاج صحبوا ركب الحاج، وانصرفوا إلى ملاقاة العلماء ولم يحجوا، وآخرين قرنوا بين الحج وملاقاة العلماء والسماع منهم، أو حجوا وتخلفوا عن ركب العودة، حرصا على إكمال مسيرتهم نحو المراكز العلمية للقاء العلماء.

فقد كان طلبة العلم يحرصون على ملاقاة أكبر عدد من العلماء لسماع رواياتهم واستجازتهم، وكانوا يثابرون في سبيل ذلك، حتى يعودوا مزودين برصيد معرفي يضيفون به جديدا على الحياة العلمية لبلدانهم، ويجعلهم محل تقدير، جديرين بالمكانة والوظيفة التي تنتظرهم. فقد روى عبدالرحمن القنازعي (ت٤١٣هـ) عن أزيد من ٧٠٠ عالم[١٦]، وكذلك يحيى بن مالك بن عائد بن كيسان؛ بينما روى ابن الزامر عبدالرحمن بن عبيد الله (ت ٣٦٩هـ) عن أزيد من ٤٠٠ محدث[١٧]؛ وآخرون كثيرون تجاوز عدد من لقي من الشيوخ والرواة المائة والمائتين، مثل بقي بن مخلد وخلف ابن قاسم الدباغ ومحمد بن وضاح وغيرهم، يضيق المجال بعدهم.

ولم تكن هناك مدة محددة للرحلات، فهي إما أن تطول أو تقصر حسب اكتفاء الطالب بالتحصيل، وعموما كانت إقامة الرحالة تستغرق سنوات كثيرة، ليحصلوا خلالها على العلم الوفير، «بقى بن مخلد» رحل مرتين، أقام في الأولى عشرة أعوام، وفي الثانية خمسةً وعشرين عاما، أما «الباجي» فلم يمنعه فقره من مواصلة رحلته التي دامت ثلاثة عشر عاما؛ بينما يوسف بن محمد بن سليمان الهمذاني من أهل شذونة، أقام في رحلته عشرة أعوام يتردد على مجالس العلم والعلماء[١٨]، في حين اكتفى ابن رشيد الفهري بثلاث سنوات عاد بعدها إلى بلده.

كان طلبة العلم يلازمون حلقات العلماء في المساجد، أو ينتظمون ضمن طلبة المدارس الكبرى إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا، يستعينون على تحمل نفقات العيش بما يصلهم من ريع الوقف؛ يقيمون في المدارس أو الرباطات أو الزوايا والخوانق التي قد توفر لهم قوت يومهم وتكفيهم عناء البحث عنه، وكان الكثير منهم يضطر إلى امتهان أي عمل للحصول على مورد يتعيش منه وينفق منه على الدراسة، فالباجي أجّر نفسه ببغداد لحراسة درب[١٩]، وكان الناس يستهجنون عمل الطلبة وكانوا يرونه لا يليق بهم وبمكانتهم الاجتماعية[٢٠].

نتائج الرحلات وآثارها

تصدَّر الرحالة المغاربة والأندلسيون عند

العودة إلى موطنهم للإقراء والتدريس وتولي القضاء والإمامة أو الكتابة لدى الأمراء، فتهيأوا لشغل هذه المناصب التعليمية والدينية بفضل تكوينهم العلمي الذي أهَّلهم لاحتلال المكانة المهمة والحظوة لدى السلطان.

كما كانت الرحلات العلمية من أهم الطرق التي دخلت منها كتب الحديث والتفسير وسائر العلوم والفنون بمختلف فنونه إلى المغرب والأندلس؛ لذلك اعتنى المصنفون خلال ترجمتهم للعلماء، بذكر حرصهم على جلب الكتب خلال رحلاتهم، أو أولويتهم في إدخال كتب معينة، وكان كتاب الموطأ أول كتاب حديثٍ دخل إلى المغرب الأقصى، أدخله عامر ابن محمد سعيد القيسي القاضي الذي سمع من مالك والثوري وروى عنهما مؤلفاتهما، كما أدخل عمر بن الحسن الهوزني صحيح البخاري إلى الأندلس، وأدخل أبو بكر بن الأحمر محمد بن معاوية بن مروان (ت٣٦٥هـ) سنن النسائي، أما زكريا بن بكر بن أحمد الغساني المعروف بابن الأشبح، (ت ٣٩٣هـ) فرحل إلى المشرق ولقي في مصر أبا الطيب المتنبي الشاعر، وأخذ عنه ديوانه، وحمله معه إلى الأندلس؛ بينما الفقيه الأندلسي أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المتوفى عام٥٤٣هـ، فقد كان له فضل إدخال كتاب الإحياء للغزالي، في حين أدخل أبو بكر الكرماني (ت٤٥٨هـ) كتاب رسائل إخوان الصفا، وأدخل بقى بن مخلد (ت٢٧٦هـ) كتاب الفقه للشافعي، وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتاب سيرة عمر بن عبدالعزيز للدورقي، والقائمة طويلة.

كما أسهمت الرحلة إلى طلب العلم في انتشار الآراء والمذاهب على أيدي طلاب العلم، بعضها أسهم في تكريس الوحدة المذهبية وترسيخ الاستقرار السياسي والاجتماعي، بينما أفكار أخرى ألهبت البلاد وأشعلت الفتن والقلاقل.

فالمذهب الأشعري دخل إلى الغرب الإسلامي على يد أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ) الذي التقى خلال رحلته بأشاعرة أثروا فيه تأثيرا قويا عكسه في دفاعه عن مؤسس المذهب أبي الحسن الأشعري.

أما ابن مسرة الجبلي (ت٣٨٨هـ) فقد تحققت فيه نبوءة رفيقه في الرحلة ابن عيسى الذي أخبره بأنه سيثير فتنة في الأندلس تبقى أبد الدهر، فتحقق ذلك بالفعل، وفتن ابن مسرة الناس بمذهبه الذي مزج فيه بين التصوف والاعتزال.

وإذا كان بعض الطلبة قد غنموا من رحلاتهم علما وفيرا، وعاد آخرون محملين بالكتب الجديدة، وأدخل غيرهم أفكارا ومذاهب مثيرة، فإن آخرين، عادوا من رحلاتهم، يحملون بذور ثورات وانتفاضات وانقلابات سياسية، فعبد الله بن ياسين (ت٤٥١هـ) الذي رحل إلى الأندلس طالبا للعلم، ومكث فيها سبع سنين، ولما عاد إلى وطنه المغرب، أعلن حركته وانقلب على الدولة الإدريسية وأسس دولة المرابطين اللمتونين. ورحل محمد بن تومرت (ت٥٢٤هـ) إلى الأندلس ثم إلى المشرق، في رحلة شهيرة التقى خلالها الغزالي أيضا، وعاد إلى المغرب مشحونا، ليتسمى باسم المهدي.. ويعلن انتفاضته السياسية وانقلابه على السلطة المرابطية وتأسيسه دولة الموحدين. أما ابن أبي محلي (ت١٠٢٢هـ) فقد رحل إلى المشرق

مرتين، المرة الأولى زار الحجاز معتمرا، وعانى الجوع والعطش في صحراء برقة حتى كاد يهلك، فأنقذه أحد اللصوص من قطاع الطرق، ثم عاد إلى الحجاز حاجا، ولقي كثيرا من العلماء، وحين عاد إلى بلاده أسس زاويته وأعلن نفسه المهدي المنتظر، وقاد ثورة في مواجهة الدولة السعدية، حتى انتهت بمقتله.

الرحلة متواصلة

إن شوق المتعلمين للرحلات نحو المشرق يبرز العاطفة الدينية لديهم، ويشهد على النهم العلمي الذي كانوا يتحلّون به، مع متانة تكوينهم العلمي وحرصهم على التعلم والاستفادة، مهما كلفهم الأمر من مشقة، ما جعلهم جديرين بالاحترام والتبجيل والدعم والقبول الذي يقابلون به أينما حلوا وارتحلوا، هذا التعاطف الذي كسبوه كان خير معين لهم على التغلب على الصعاب وتجاوزها.

وقد خلف هؤلاء العلماء كتبا ومذكرات دونوا فيها يوميات رحلتهم، ومَن لقوا فيها من العلماء والأعيان، وما شاهدوا، وما سلكوا من سبل عانوا خلالها ألم الفراق ومشاق السفر وأهوال الطريق، مع ضيق اليد واستبداد النظم. هذه المصنفات، تقف اليوم شاهدة على تاريخ غني لهذه الأمة، لا يخلو من إثارة أو غرابة أحيانا، تحفظ لنا تراجم وسيرا ومعلومات مهمة حول أشخاص وأحداث ووقائع، ما كانت لتصل إلينا لولا هؤلاء العلماء الأعلام، الذين أبَوا إلا أن يلقوا بأقلامهم ومدوناتهم أضواءً كاشفةً على مراحل مهمة ودقيقة من تاريخ حضارتنا المجيدة، يمهّدون السبل لتواصل أمتهم مسيرتها ورحلتها الحضارية ضمن أمم العالم اليوم.

---

(١) الحميدي: جدوة المقتبس (الدار المصرية ١٩٦٦م) ص ٢٠١.
(٢) نفسه، ص ٢٧٤.
(٣) المقري: نفح الطيب، بيروت دار صادر ١٩٨٨م (تحقيق إحسان عباس) ج ٣ ص ٩.
(٤) تاريخ ابن الفرضي، القاهرة مطابع سجل العرب، القسم ٢ ص ١٣٨.
(٥) نفسه، القسم ١ ص ١١٥.
(٦) محمد سالم محيسن: معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، دار الجيل، ص ١٧٢.
(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء جزء ٣ ص ٤٠١٧ ترجمة رقم ٦٣٩٥.
(٨) عبدالعزيز بنعبد الله مقال مجلة دعوة الحق (الرباط) العدد ٢٤٠ ذو الحجة ١٤٠٤/ شتنبر ١٩٨٤م.
(٩) المرجع نفسه.
(١٠) ابن الفرضي: قسم ١ ص ٨٣.
(١١) الزبيدي طبقات النحويين، القاهرة دار المعارف (تحقيق محمد أبو الفضل) ص ٢٥٣.
(١٢) ابن بشكوال: الصلة، دار الكتاب المصري ١٩٩٠م (تحقيق الأبياري) ص ٥٤٨.
(١٣) ابن الفرضي، قسم ١ ص ٢٣٠.
(١٤) المقري: ج ٢ ص ١٤٢.
(١٥) الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين، مدريد ١٩٩٢م (تحقيق ماريا لويسا أبيلا ولويس مولينا) ص ١٧.
(١٦) ابن بشكوال: الصلة ص ٤٨١.
(١٧) ابن الفرضي ص ٢٦٤.
(١٨) ابن الفرضي ص ٢٠٦.
(١٩) القاضي عياض: ترتيب المدارك (بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٩٨م) جزء ٢ ص ٣٤٩.
(٢٠) ابن الحاج: المدخل (دار التراث) جزء ٢ ص ١٢٧.

منطقة الجوف
في أدب الرحلة الأوروبي

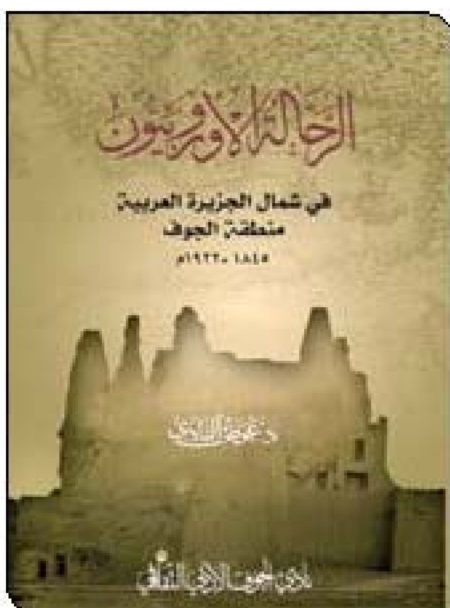
■ د.عوض البادي

يُعدّ أدب الرحلة من أقدم أنواع الأدب وأوسعها، وقد احتل مكانة مهمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية خلال القرون الثلاثة الأخيرة، لما أسهم به في المجالات الثقافية والتاريخية والدينية والجغرافية والبيئية.. وحتى السياسية والفلسفية؛ بتوفيره لمعرفة أصيلة وقيّمة حول الإنسان وجغرافيته وبيئته وظروفه عبر أزمان طويلة، وفي كل أرجاء المعمورة. وقد استحق هذا الأدب أن يكون مجالاً من مجالات الدراسة الأكاديمية المستقلة لثراء مادته وتنوّعها واختلافها. ومع ما شهده هذا الأدب من تغيّرات مرتبطة بالتغيرات العالمية؛ من حيث سهولة التنقل والاتصال، واتساع حركة الهجرة، وتنوّع وسائل المعرفة، واكتشاف المجهول. فقد حافظ هذا الأدب على أهميته كوسيلة من وسائل معرفة الآخر، ورسم صورته، وفهمه في الحاضر كما في الماضي.

في عصر ازدهار هذا النوع من الأدب الذي بلغ أوجه في القارة الأوروبية خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادية، كانت الجزيرة العربية أحد موضوعاته؛ فكان اليمن والحجاز وشمالي الجزيرة ووسطها وعُمان والخليج محطات لرحالة أوروبيين كثيرين أسهموا في إثراء هذا الأدب بمعلومات تاريخية مهمة لا توفرها أي مصادر أخرى، ورسموا صوراً ومشاهد بعيونهم الأجنبية لأرض الجزيرة العربية وإنسانها بدوياً وحضرياً، هي اليوم من الماضي؛ إلا أنها ما تزال حاضرة في وجدان الآخر وتصوراته حول أرضنا وإنساننا، إيجاباً أو سلباً.

شغلت منطقة الجوف في شمالي الجزيرة العربية حيزاً مهماً في أدب الرحلة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر؛ إذ كانت معبر كثير منهم إلى وسط الجزيرة العربية، وقد شمل هذا الأدب تفاصيل ومعلومات تاريخية وسياسية


رسم قصر خزام بدومة الجندل





جورج أوغست والن (لوحة زيتية)

منطقة الجوف
في أدب الرحلة الأوروبي

كان الرحالة الفنلندي «جورج أوغست والن» أول رحالة أوروبي تطأ قدمه منطقة الجوف في سنة ١٨٤٥م، وأقام في عاصمتها دومة الجندل وبين ظهراني أهلها نحو ثلاثة أشهر، منتحلاً صفة رجل دين مسلم من بخارى، باسم «عبد الولي». درس «والن» وسجل ملحوظاته حول المكان والإنسان، لكن ما نشره حول رحلته - وهو في غاية الأهمية- غلب عليه الطابع العلمي، الذي كان هدفه المباشر من رحلته، ولم يصل إلينا كاملاً لوفاته المبكرة سنة ١٨٥٢م.. وقبل وضع روايته الكاملة لرحلته.

توزعت ملحوظات «والن» بين المحاضرات والرسائل والمذكرات والمقالات، ولم يُتَحْ لها أن تُقدم كرواية واحدة وبلغة أدبية متماسكة لتحتل مكانتها الرائدة في أدب الرحلة الأوروبية حول منطقة الجوف، فخلت ملحوظاته من الانطباعية ولغة السرد التي تسم هذا النوع من الأدب. ورغم ذلك، ولكونه الأول في سلسلة الرحالة الأوروبيين، فقد شكّل ما تركه من إرث معلوماتي موضوعي في تاريخ المنطقة وأوضاعها في تلك المرحلة التاريخية، مرجعية لمن تبعه من الرحالة الآخرين. لقد صوّر «والن» بلغته العلمية المكان بشكل دقيق جداً، وعرض لجغرافيته وتضاريسه مستحضراً مكانته التاريخية وتقلبات زمانه. وصوّر أيضاً وضع أهله الذي تعامل معه، فنجده يذكر أن القراءة والكتابة منتشرة بينهم أكثر مما هي في البلدان العربية التركية. وأنه واقتصادية وسكانية وجغرافية مهمة ودقيقة حول أوضاعها كافة. وهذه المقالة لا تهدف إلى تناول ما كتبوه؛ إذ سبق للكاتب أن قدم ما كتبوه حول شمالي الجزيرة العربية وبأسنتهم في عملين شاملين[1]؛ بل تسجيل انطباعاتهم الشخصية ومشاعرهم نحوها.



رغم أن السكان معروفون بنزاعاتهم وقسوتهم في حروبهم فيما بينهم، إلا أنهم معروفون ومعترف بهم من جميع الناس بأنهم مضيافون جداً، ولطفاء مع الغرباء. ويقول: «إنه فيما يتعلق بي، فعليَّ الاعتراف أنه حتى من القبائل العربية المضيافة في الصحراء لم أقابل أي قبيلة تفوق أهالي الجوف في هذه الفضيلة. ولم يعاملني من قبل أحد بمثل ما عاملوني به. وذكر أيضاً أن أهل الجوف معروفون بمواهبهم الشعرية والموسيقية...» ويؤكد ذلك بقوله: «نادراً ما قضيت ليلة واحدة دون رفقة بعض الشباب الذين يغنون بصحبة الربابة، هذه الآلة البدوية الرتيبة والساحرة في الوقت نفسه. وبما أن موهبة الشعر والموسيقى منتشرة بين البدو، فإنه لا يمكنني القول إن أهل الجوف يبزون الآخرين في هذا الجانب».

بهذه الروح الموضوعية رأى «والن» الصحراء وأهلها، وتعلق بها وبهم، وكان سعيه متواصلاً للعودة إليها بأي ثمن؛ وديدنه يقول: «كانت صحراء شبه الجزيرة العربية هي الهدف الأكبر في حياتي، وسأحاول أن أنفذ خطتي للذهاب إلى هناك بأسرع ما يمكن... ويمكن أن أرجع إلى هناك كرحالة أوروبي لأبحث أرض العرب المجهولة، وسوف أقدم نتائج أبحاثي إلى البلاد الغربية الطالبة للعلم..أو ربما أذهب من أجل سعادتي الشخصية. فسوف أبعد عن حياة أوروبا الضاغطة، وأتمتع بطبيعة الصحراء الفذة. وسوف أنعم بحياة البدو المليئة بالحرية والنشاط، وأستريح من حياة المظاهر في أوروبا. ويمكن لي أن أحيا وأموت كالبدوي الحر



وليم غيفورد بالغريف

بين أهل الصحراء الأحرار. وأنا مستعد أن أدير ظهري إلى الغرب وأتجه نحو الشرق، وسوف أفعل ذلك عاجلاً أم آجلاً». لقد كان القدر له بالمرصاد فحرم من هدفه، وحرمنا من روايته الكاملة.

على خلاف «والن» بلغته العلمية، أتيحت للرحالة البريطاني «وليم غيفورد بلغريف» - الذي زار منطقة الجوف سنة ١٨٦٢م، ومكث فيها ما يقارب الأسبوعين- الفرصة ليكتب رواية رحلته إلى الجزيرة العربية بحاسة فنانٍ ولغة أديب. كان «بلغريف» منذ بدء مسيرته من معان باتجاه الجوف التي منها ذهب إلى حائل والقصيم والرياض والخليج يعبِّر عن هواجسه وأحاسيسه حول مغامرته. وقد صرح بذلك منذ البدء، بقوله: «للمرة الأخيرة دعونا نحاول الحصول على معرفة موضوعية وشاملة حول الجزيرة العربية. إننا نعرف الكثير حول



مناطقها الساحلية؛ ومعرفتنا بعضها حتى لو كانت قليلة فهي كافية؛ اليمن والحجاز ومكة والمدينة لم تعد سرًّا، ولدينا معلومات حول حضرموت وعُمان. أما داخل الجزيرة العربية بسهوله وجباله وقبائله ومدنه وبحكوماته ومؤسساته.. وبسكانه وعاداتهم وأخلاقهم وأوضاعهم الاجتماعية، ومستوى مدنيتهم أو بداوتهم، ليس كذلك. هل ما نعرفه حتى الآن دقيقًا وكاملاً؟ لقد حان الوقت لسد هذا الفراغ في خارطة آسيا، ومهما كانت الأخطار، سنقوم به؛ إما أن تكون هذه الأرض قبرًا لنا أو نعبرها من أولها إلى آخرها. لا عودة عن ذلك». بهذه الروح وصل «بلغريف» إلى الجوف بعد مسيرة أكثر من أربعمائة كيلومترا من معان إلى الجوف في صحراء مجدبة.

اختزل «بلغريف» وصفه للجوف ومشاعره عند وصوله إليها بقوله: «وادٍ عميق يميل إلى الانخفاض، مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى نهاية عميقة تحجبها عن النظر سلسلة جبلية، تتعرج بألوانها المحمرة، والمنظر عبر هذا الوادي وحتى نهايته تظلله بساتين النخيل، وأشجار الفاكهة، التي تحمل عناقيد ثمارها، كما يظللها لون أسود ضارب إلى الاخضرار على مدى تعرجات الوادي، ويشمخ بناء غير منتظم، يلوح ككتلة سمراء على قمة جبل في المنطقة الوسطى، وهي قلعة عالية منفردة تطل على الجانب الآخر من الوادي. وإلى الأدنى قليلاً تلوح أبراج دائرية أصغر.. ورؤوس منازل مسطحة، تختفي وتظهر بين أوراق أشجار البساتين، وكأن الوادي يغتسل في تيار عمودي من الضوء والحرارة. كان هذا هو أول منظر لبلدة الجوف عند اقترابنا منها، من جهة الغرب. لقد كان منظرًا خلاّبًا، بدا لنا بعد رحلة طويلة، شرعنا بها من غزة وفلسطين، إلى مشارف المواطن المأهولة في شبه الجزيرة العربية. كانت رحلتنا عبر صحراء موحشة طويلة، امتدت على وتيرة واحدة، فكانت الجوف أشبه بجنة الخلد لا يدخلها أحد إلا بعد عبور صراط جهنم، حسب وصف شاعر عربي يصور منطقة شبيهة بالجزائر».

ثم يبتعد «بلغريف» بلغته الشاعرية عن واقع هذه الواحة الوادعة وسط أرض مجدبة تحوطها، وقد وجد بها ما يسره بعد دخولها.

كان «بلغريف» قد بدأ رحلته إلى الجزيرة العربية من بيروت، إذ تقمّص شخصية طبيب سوري، واختار اسمًا عربيًا له، هو «سليم أبو محمود العيس»، وقد حمل معه بضائع للمتاجرة بها. وبعد أسبوعين من الإقامة وممارسة التجارة والطبابة في الجوف غادرها إلى حائل.

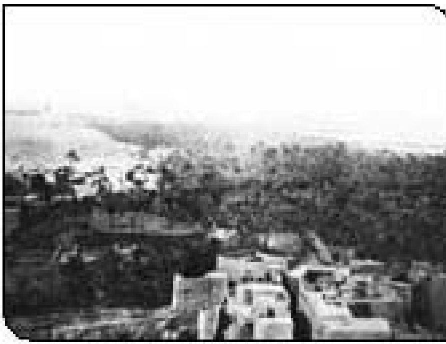
وصف «بلغريف» فترة إقامته في الجوف متناولاً تفاصيل الحياة اليومية وأدقها، وجاء في وصفه لأهلها: «إن العدد الإجمالي للسكان في كل المنطقة، لا يتجاوز بحال اثنين وأربعين ألف نسمة، لكنها منطقة موصوفة بالشجاعة؛ فأهلها تتوافر فيهم مواهب بدنية قلّ أن توجد عند غيرهم؛ فهم عادة يمتازون بطول القامة، وحسن البنية؛ ألوانهم فاتحة، وشعورهم سوداء، ويتصفون عمومًا بالذكاء، ولهم ملامح دقيقة، ولهم كبرياء. والجوفيون من عنصر جيد،



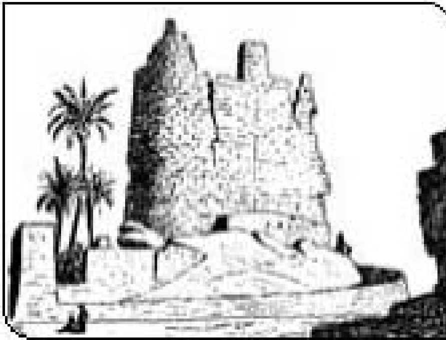
يمكن أن يكون العنصر العربي الإسماعيلي الشمالي الصافي، وهم الأصل الذي انبثق منه سكان جبل شمَّر».

«إن صفاتهم البدنية المتميزة، ومُحيّاهم المقبول يناقض بشدة صفات البدو، وهم بجانب ذلك قوم أصحاء يحتفظون بنشاطهم حتى حينما يتقدم بهم العمر. ويبدو شيئًا مألوفًا أن ترى رجلاً عجوزًا في السبعين من العمر مسلحًا بكامل عدته ضمن جماعة من الشبان، وإن كانت ظاهرة ربيع العمر الدائم يمكن أن تجدها في الأقاليم الوسطى إلى الجنوب من الجوف، وقد لاحظت ذلك. الطقس هنا جيد وجاف، وعادات الحياة خارج السكن، يمكن أن تؤدي دورها في الحفاظ على الصحة والحيوية. وهم في أخلاقهم وسط بين البدو والحضر. إنهم يلتقون مع البدو في كراهيتهم للمهن اليدوية، وعدم اهتمامهم بالحصول على الثقافة، وتقلب مزاجهم بلا هدف محدد، حتى في أساليب الغدر والخيانة. إلا أنهم عمومًا متأدبون ويحترمون أنفسهم أكثر... وبالدرجة نفسها يبعدون عن التشريفات والمجاملات اللطيفة التي تجدها عند شمَّر وفي نجد، وأقل بكثير من تلك التي تجدها في الإحساء وعُمان».

«أما فيما يتعلق بجوانب النظافة بالنسبة لهم ولعاداتهم، وفي المهارة في الزراعة، وفي ضبط الأعصاب والإدراك العام، وفي إحساسهم بالانتماء لإقليمهم، وفي التعامل مع الغرباء، وإدارة التجارة وقابليتهم للتطور، هم أقرب إلى سكان المدن والقرى الكبيرة في شبه الجزيرة



منظر للجزء الغربي من دومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)



رسم قصر مارد بدومة الجندل



قلعة مارد (موزل، ١٩٢٢م)



فيصل بن حمود الرشيد أمير الجوف مع رجاله في قصر قزام بدومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)

العربية. وإذا حكمنا عليهم من خلال حكمنا على قبيلة طيئ التي تعود جذورهم لها.. فهم إلى حد معقول متحضّرون، ولهم ميل فطري إيجابي ليكونوا كذلك. مرة أخرى لقد أخرتهم الحروب والنزاعات، إضافة إلى النفوذ المقلق للقبائل البدائية الذين هم إلى حدٍّ ما معزولون عنهم بسبب موقعهم الجغرافي».

كان الرحالة الإيطالي «كلاوديو غوارماني» الرحالة الأوروبي الثالث الذي وطأ أرض الجوف البلدة(دومة الجندل) والجوف المنطقة في سنة ١٨٦٤م بصفته تاجر خيل عثماني، وقد قدم روايته بلغته الإيطالية، وقد وصل إلينا من خلال ترجمته إلى اللغة الإنجليزية خلال الحرب العالمية الأولى لأهمية تفاصيله الجغرافية التي كانت تحتاج إليها القوات البريطانية في المنطقة. وقد شغلت المعلومات حول منطقة الجوف حيْزاً مهماً من عمله الذي ابتعدت لغته بجفافها ومباشرتها عن لغة أدب الرحلات.

بعد انقطاع دام خمسة عشر عاماً في رحلات الأوروبيين إلى وسط الجزيرة العربية عبر منطقة الجوف، قامت الرحالة البريطانية الارستقراطية «الليدي آن بلنت» برفقة زوجها «ويلفريد بلنت» برحلة إلى وسط نجد عام ١٨٧٩م. روت «الليدي آن بلنت» رحلتها في كتاب يُعَد من أبرز كتب أدب الرحلات الأوروبية في الجزيرة العربية، وحظي باهتمام بالغ بوصف الكاتبة امرأة تجشمت عناء رحلة طويلة في أرض مجهولة. حظيت منطقة الجوف بنصيبها من الوصف في هذا الكتاب، وعلى خلاف الرحالة الذين سبقوها، كان قدوم «الليدي بلنت» عن طريق دمشق، فوصفت كافة القرى الواقعة في شمالي وادي السرحان.. وهي قرى كاف وإثرة قبل وصولها إلى الجوف(دومة الجندل العاصمة)، وقد أتيحت لها الفرصة في زيارة بلدة سكاكا، وكانت أول رحالة أوروبية تصل إليها، وتصور الحياة الاجتماعية فيها. كانت رواية «الليدي بلنت» متأثرة برواية «وليم بلغريف» الذي سبقها، والتي تأثر بها كل الرحالة الذين جاؤوا من بعده. لقد وصفت وصولها إلى بلدة الجوف (دومة الجندل) بما لا يختلف كثيراً عن «بلغريف» بقولها: «كانت مسيرتنا شاقة وطويلة لمسافة عشرين ميلاً، وكنا نتوقع باستمرار أن نرى الجوف، إلاَّ أن آمالنا تخيب دائماً، فقد تحولت الأرض إلى تلال وأودية مذهلة، لكن كان مستوى الأرض أقل ارتفاعًا مما كان عليه بالأمس، إذ كنا في حقيقة الأمر ننحدر على طول اليوم. وكنا بين مدة وأخرى نلحظ وادي السرحان إلى يمِيننا، على مسافة بعيدة. من الجهة الأخرى مرتفعات زرقاء، بينما بدت الأرض أمامنا سلسلة مستمرة من التلال الصخرية. وأخيرًا، ومن على قمة أحدها، ظهر خط أسود، يشمخ بسواده عاكسًا بصفاره خليط تلال الصخور الرملية، والأودية الجرداء، وعرفنا أنها لا بد أن تكون قلعة مارد. وبدت شامخة في حقيقة الأمر، وإن بدت مرعبة وسط هذا العراء المقفر. مضينا نحوها تحدونا الرغبة بمشاهدتها عن قرب. ومن ثم وصلنا إلى معبر طبيعي من الحجر الأبيض.. وسرنا على هذا الطريق لبضعة أميال حتى اختفى.



وفجأة وصلنا إلى حافة قاع، وهناك من تحتنا امتدت واحة كبيرة من النخيل، يحيط بها سور ذو أبراج متباعدة، وقرية صغيرة التفت حول القلعة السوداء. لقد وصلنا الجوف. ليست الجوف كما توقعنا أبدًا. لقد اعتقدنا أنها بلدة واسعة ومعتنى بزراعتها، وتبيّن أنها مجرد بلدة صغيرة. لا شيء إطلاقًا خارج الأسوار سوى بضع بساتين مربعة الشكل، كل منها نحو نصف فدان، مخضرة بالحنطة حديثة الزرع. وتسقى هذه من آبار، وترى تمامًا مثل البساتين داخل الأسوار، بمجارٍ صغيرة خطت بأنماط مختلفة. وفي الواقع كل حوض الجوف بالكاد يبلغ اتساعه ثلاثة أميال في أوسع نقطة منه...»

قدّمت «الليدي بلنت» وصفها لإقامتها في بلدة الجوف، ومن ثم انتقلت إلى بلدة سكاكة التي وصفتها بقولها: «إن سكاكة... بلدة أكبر من الجوف، إذ فيها سبع مئة بيت، كما يقولون، وبساتين للنخيل على الأقل ضعف ما في الأخرى. ومركز البلدتين يكاد يكون واحدًا، تجويف عريض محاط بحروف من الصخور الرملية، ولكن حوض سكاكة أقل انتظامًا، وتنتصب فيه تلال رملية وتلال نائية من الصخور. وسكاكة مثل الجوف فيها قلعة قديمة (قلعة زعبل)، تشمخ أعلى مرتفع.. علوه نحو مئة قدم، يُشرف على البلدة المقامة بطريقة غير هندسية، وبلا سور متصل يحوط بساتينها. وكان هناك عدد كبير من البساتين والدور المنفصلة عن بعضها، وكانت عامرة وليست خربة كتلك الموجودة بالجوف إثر الحروب الأخيرة. كل هذه البساتين والدور ذات منظر مزدهر، ولا يوجد فدان واحد يمكن ريّه ولم يُزرع. كل شيء مرتب ونظيف، الأسوار جديدة الشرفات، وكل منزل منسق وكأنه حديث البناء. والحقول المربعة الشكل المزروعة بالشعير مسيجة بأسيجة مصنوعة من أغصان النخيل المجدولة، والشوارع والأزقة منظمة بشكل دقيق».


يوليوس أويتنغ


تشارلز موير

لقد شكّلت رواية «الليدي بلنت» لرحلتها أول



رواية تغطي كافة أوضاع بلدات وقرى المنطقة المأهولة خلال فترة زيارتها، وبذلك أخذت المنطقة بأكملها وضعها في أدب الرحالة الأوروبي.

بعد نحو سنة ونصف السنة من زيارة «الليدي آن بلنت»، قام الرحالة الفرنسي «تشارلز هوبر» سنة ١٨٨٠م بعبور منطقة الجوف في طريقه إلى حائل. كان اهتمام هذا الرحالة جغرافياً، لكنه قدم روايته بلغته الفرنسية، متضمنة كثيرا من المعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية والسكانية حول المنطقة. ويمكن القول إن ما قدمه «هوبر» كان مهماً في أدب الرحلة الفرنسي الخاص بالجزيرة العربية، إلا أنه مثل الرحالة الفنلندي «والن»، لم يتح له القدر أن يكتب روايات رحلاته بنفسه؛ إذ قتل خلال رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية، وهو في طريق عودته إلى حائل قادماً من جدة في نهاية شهر مارس ١٨٨٤م. كان هذا الرحالة في وصفه محايداً إلى حد كبير في يومياته، ولم يسجل انطباعاته الشخصية كمن سبقوه، بل حاول أن يكون علمياً في قصته غير الكاملة.

أتيح للرحالة الألماني «يوليوس أويتنغ» والذي زار منطقة الجوف برفقة «تشارلز هوبر» سنة ١٨٨٢م الفرصة كاملة لتقديم روايته لرحلته في المنطقة، وقد قدمها بصيغة اليوميات التي تحوي تفاصيل ما كان يجري معه، إضافة إلى صراحته في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه وانطباعاته. كما كان «أويتنغ» فناناً ورساماً، فرسم بريشته كثيرا من المشاهد والشخصيات التي قابلها. وكانت رسوماته أول رسومات لمشاهد وآثار وشخصيات المنطقة.

أقام «أويتنغ» فترة طويلة في قرية كاف.. فاختلط بالسكان، واقترب منهم، وقدم تفاصيل حياتهم اليومية وأوضاعهم الاجتماعية. وهذا الحوار بين «أويتنغ» وإحدى النساء الزائرات للقرية التي عبرت عن رغبتها بالزواج منه عن هذا القرب. يقول أويتنغ: جاءت.. فتاة جميلة ذات سبعة عشر ربيعًا تقريبًا تدعى «لهود»، وببساطة وسذاجة كبيرتين عبرت هذه الفتاة عن أمنيتها بأن أتزوجها. كذلك كانت الأخريات ورائي بشكل دائب ليقنعنني بالزواج. كيف يتسنى لي إذًا أن أدافع مؤيدًا حججي بالرفض؟ قد يتبين ذلك من هذا الحديث المثير للدهشة بيني وبين «لهود»:

قلت: «إنني أسافر الآن في أرض اليمن، وليس فيها هدوء وراحة، ولا أحتاج امرأة، وإلا لكنتُ قد صحبت إحداهن من بلدي».

قالت: «نسلؤكم لسن معتادات على السفر، أما أنا فيمكنني ركوب الإبل ليلاً ونهارًا جيدًا مثلي مثل الرجل».

قلت: «لكنني لا أملك إلا ذلولاً واحدة فقط كما تعلمين».

قالت: «هذا لا يهمُّ ! سوف أركب رديفًا لك بشكل جيد ! إنني لا أحتاج إلى حبل ولا إلى رباط».

قلت: «حقًا، ولكن يعلم الله أنني أقضي كل حياتي هائمًا في بلاد موحشة، وإنني يومًا ما



سوف أعود إلى موطني في بلد المسيحية، وإلى هناك لا يمكنك حقًا الذهاب معي».

قالت: «لماذا لا يمكن ذلك؟ هل سيقوم المسيحيون بضربي حتى الموت وأنا امرأة؟ ألا يمكنك أن تحمي أنثاك؟ إنه سيكفيني للعيش اليومي حفنة برغل، أو حفنة أرز وبضع تمرات؛ وأن تشتري لي ثوبًا إذا ما احتجت إلى واحد منها».

قلت: «إن هذا لهو أقل شيء، لكنني أعلم مسبقًا أنه إذا ما جئت إلى بلادنا فلن تفهمين اللغة، وسترين بشرًا غرباء، وبعد ذلك سوف تقلقينني طوال الوقت بالنواح والحسرة على أمك وأبيك».



آن بلنت

قالت: «أتحسبني مغفلة أو مخبولة. لماذا لا يمكنني أن أتعلم لغتكم؟ وكيف يتعلم أطفالكم؟ خذني امرأة لك، وسوف أظل كذلك. أما بشأن والديّ وأشقائي فسوف لن تنبس شفتي بكلمة شكوى واحدة».

بسلاسة وطلاقة لسان لم تترك لي حجة.

هكذا بدأ موضوع الزواج يتداول ويُطرق كل يوم، وكانت الأحاديث البريئة والساذجة حقًا مثار تسلية كبيرة، ولا بد لي أن أقر بأنني لم أجد أي فتاة ذات جرأة، وبالتالي سهلة الانقياد».

بهذه الكيفية كان «أويتنغ» يقدم الكثير بالقلم والريشة حول تفاصيل أوضاع المنطقة الاجتماعية والسياسية والعمرانية والثقافية والجغرافية والبيئية.

بعد كاف، رحل «أويتنغ» - وهو في طريقه إلى حائل- إلى بلدة الجوف(دومة الجندل)، فمكث فيها عدة أيام، أتاحت له وصفها وتقديم معلومات تاريخية جديدة عنها، وجاء وصفه مختلفا عن غيره. صادف وجود «أويتنغ» في الجوف عيد الأضحى لعام ١٣٠٠هـ، فوصف الاحتفال بالعيد: «جرى نحر أحد الجمال استعدادًا لهذه المناسبة، وتمت عملية النحر بسيف قطعت به رقبة الجمل، وفي أثناء عملية الذبح وقفت الجمال الأخرى دون أي حركة أو انفعال، وأخذت الضحية وقتًا طويلاً حتى سقطت على الأرض، وظل الجمل يُلقي برأسه هنا وهناك وهو يئن ويتوجع حتى فاضت روحه.

وقد لاحظت الناس جميعهم وقد دبت بينهم طفرة نظافة. وأينما نظر الإنسان في أي ركن أو زاوية.. يرى من يغسل رأسه أو يحلق ذقنه، أو يستبدل لباسه. وكأنها بلدة عامرة ظهرت مرة



واحدة على وجه الأرض.

بعد تناول طعام العشاء، كان هناك اجتماع آخر، ومقابلة مع العديد من الرجال أمام البوابة، وكان جوهر (عامل الجوف) نفسه يرتدي عباءة سوداء جديدة، وكوفية صفراء بخطوط حمراء، وقد أعطاه هذا اللباس وقارًا في أثناء زيارته. قبع هنا أكثر من خمسين رجلاً خلف سور صغير في حلقة حول النيران في أثناء إعداد القهوة، وحتى الجنود الذين كانوا يقفون في البداية خلف جوهر، ويبلغ تعدادهم نحو عشرين رجلاً، تلقوا إشارة من جوهر بالجلوس، وقد وضع كل منهم سيفه مغروزًا أمامه في الرمل. تلألأت النيران، وكان ضوؤها ساحرًا مع القمر، لأن الضوء وانعكاسه يعطي انطباعًا حيًّا وجماليًّا وسط تلك المجموعة المظلمة. انتهت هذه المناسبة والاحتفال بعد أداء صلاة طويلة، وبعد أحاديث طويلة. ويضيف أويتنغ إنه: «عند الظهر تقريبًا عادت ركائبنا من المرعى، وعند العصر قررنا أن نركبها عبر الوادي إلى سور البلدة الماثل في غربها. وفي طريق عودتنا وقرب غروب الشمس شاهدنا منظرًا عجيبًا رسخ في ذاكرتي، لم أشاهد مثله ثانية طوال رحلتي. ففي سهل واسع وفسيح، جرت رقصات رائعة، إذ وقف صفان متقابلان، تفصل بينهما عشرون خطوة، في الصف الأول عدد من الفتيات، وفي الصف الثاني عدد من الفتيان وفي الوسط وقفت فتاتان ترقصان برؤوس مكشوفة وشعر مسدول إلى الخلف. بدأ الرقص على شكل خطوات قصيرة للأقدام، مع فرد الأذرع حيث تتقارب الصفوف وتتباعد، ثم



علي الجارد، وكيل أمير الجوف في بلدة سكاكا (بتلر، ١٩٠٨م)



قلعة مارد ومحيطها (هولت، ١٩٢٢م)



داخل قصر مارد بدومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)



قصر خزام بدومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)



مرة واحدة أدارت الفتاتان ظهريهما لبعضهما وأمالتا رأسيهما إلى الخلف، وحركتاهما نحو بعضهما. وقام صف الفتيات بالتصفيق لهما وأيديهن متعامدة فوق صدورهن. وفي هذه الأثناء كان الفتيان يتراصون في الجهة المقابلة، وقد التصقت مناكبهم وسيوفهم أمامهم، وكانوا يغنون معًا بصورة سريعة.. لقد قيل لي إن هذه الرقصة تسمى الدّحة».

غادر «أويتنغ» الجوف ولم ينس أن يودعها قائلاً: «عند حافة المرتفع ألقينا نظرة وداعية على تلك الواحة الوادعة خلفنا».

تعاقب على منطقة الجوف بعد «أويتنغ» رحالة آخرون، وكان من أهمهم الرحالة اللاتفي «البارون إدوارد نولده» الذي عبر المنطقة إلى حائل سنة ١٨٩٣م، والرحالة التشيكي «ألويس موسيل» في سنتي ١٩٠٩م، و١٩١٥م. لم يقدم «نولده» في روايته الكثير عن المنطقة، فقد كان في مهمة سياسية إلى وسط الجزيرة العربية، ويعد ما كتبه مهماً في السياق السياسي وليس في أدب الرحلة. أما الرحالة والعالم الكبير «ألويس موسيل» فقد قدم الكثير، ويعد كتابه «الصحراء العربية» من أهم كتب أدب الرحلات في شمالي الجزيرة العربية، وقد شكلت منطقة الجوف وأوضاعها وقبائلها جوهر محتوى هذا الكتاب.

ما بين هذين الرحالين كان هناك المبشر «ارتشيبالد فوردر» الذي زار المنطقة مبشراً بالمسيحية في سنة ١٩٠١م، لكن وصفه لرحلته كان مرتبطاً بهدفه، ولم يعد عمله مهماً في أدب الرحلة. وتبعه الضابط البريطاني «س. س. بتلر» سنة ١٩٠٨ وقد قدم وصفاً مهماً ومعلومات مهمة حول وضع المنطقة، قدمها في محاضرة عامة، لكنها أيضاً لاتُعد ضمن أدب الرحلة، وفي هذا السياق أيضاً يمكن وضع رحلة «سانت جون فيلبي» سنة ١٩٢٢م إلى منطقة الجوف.

خاتمة

حظيت منطقة الجوف بمكانة خاصة في أدب الرحلة الأوروبي إلى الجزيرة العربية لأهمية موقعها في شمالي الجزيرة العربية؛ فكانت بوابتها شمالاً وجنوباً، إذ عبرها عدد من الرحالة الأوروبيين المهمين، الذين أسهموا في إثراء أدب الرحلة الأوروبي للجزيرة العربية مثل: الرحالة الفنلندي «جورج أوغست والن»، والرحالة البريطاني «وليم غيفورد بلغريف»، والرحالة الإيطالي «كلاوديو غوارماني»، والرحالة البريطانية «الليدي آن بلنت»، والرحالة الفرنسي «تشارلز هوبر»، والرحالة الألماني «يوليوس أويتنغ»، والرحالة اللاتفي «البارون إدوارد نولده»، والرحالة التشيكي «ألويس موسيل». لم يقدم هؤلاء الرحالة معلومات ذات أهمية بالغة لتاريخ منطقة الجوف في هذا النوع من الأدب وحسب، بل قدموها بفيض من الأحاسيس المتوهجة لما يتأمل فيها من عبق التاريخ، وأريج الأرض وسخائها، وعمق الانتماء، وكرم الأهل.

(١) عوض البادي، الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف (الجوف: نادي الجوف الأدبي الثقافي ٢٠١١م)؛ عوض البادي، الرحالة الأوروبيون في شمال ووسط الجزيرة العربية: منطقة حائل (حائل: نادي حائل الأدبي الثقافي، ٢٠١٤م).



نماذج من أدب الرحلات

رحلة المرايا المهشمة

الصعود إلى الجبل الأخضر[1]

للشاعر العماني سيف الرحبي.

■ سعيد بوكرامي - المغرب

(١)

أصبح الابتعاد المؤقت أو الدائم عن الوطن أحد الموضوعات الأكثر إثارة في أدب الحداثة وما بعد الحداثة. لأن المفهوم عموما ظهر كشرط وجودي ومعرفي للأديب العابر للفضاءات أو المنفي في هذه الفضاءات، التي تتحول جماليا إلى سياقات مجازية موغلة في تجربة السفر، المفضية بالضرورة إلى تغييرات في الهوية الشخصية والجغرافيات الرمزية الجديدة التي يشكك الأديب الرحالة في ثوابتها المعتادة؛ لأن الحالة الإبداعية نفسها غير مستقرة فهي تسعى دائما إلى خلق تصادم خلّاق بين المركز والهامش، بحساسية مستكشفة ونظرة ثاقبة.

كان الإنسان دائما مدفوعا وفي كل العصور بالرغبة في اكتشاف بلدان وثقافات أخرى، والتعرف إلى أشخاص آخرين، ثم تقديم شهادة عن عبوره. وهذا ما جعل أدب الرحلة يجترح لنفسه نوعا أدبيا مهما زاخراً بالمعطيات الثقافية والاجتماعية والأنثربولوجية.

من بين هؤلاء الأدباء العرب الرحالة في عصرنا الحالي، الذين كتبوا أدب رحلة معاصراً ومغايراً، نذكر: محمود تيمور: (أبو الهول يطير - شمس وليل)؛ وأنيس منصور: (حول العالم في ٢٠٠ يوم - اليمن ذلك المجهول - بلاد الله خلق الله - أعجب الرحلات في التاريخ)؛ وأحمد محمد حسنين: (في صحراء ليبيا)، وطاهر أبو فاشا (وراء تمثال الحرية)؛ وأمين الريحاني: (المغرب الأقصى)؛ ومصطفى محمود: (مغامرة في الصحراء - الغابة)؛ وعبدالفتاح رزق: (مسافر على الموج - رحلة إلى شمس المغرب)؛ وخيري شلبي: (فلاح مصري في بلاد الفرنجة)؛ وتركي الدخيل: (سعوديون في أمريكا)؛ وغازي القصيبي: (العودة سائحا إلى كاليفورنيا). وعبدالرحمن بن زيدان: (رحلة إلى اليابان) وغيرهم.

لكن سنوات التسعينيات ستعرف بروز أدباء جدد قدموا لأدب الرحلة من الشعر والرواية

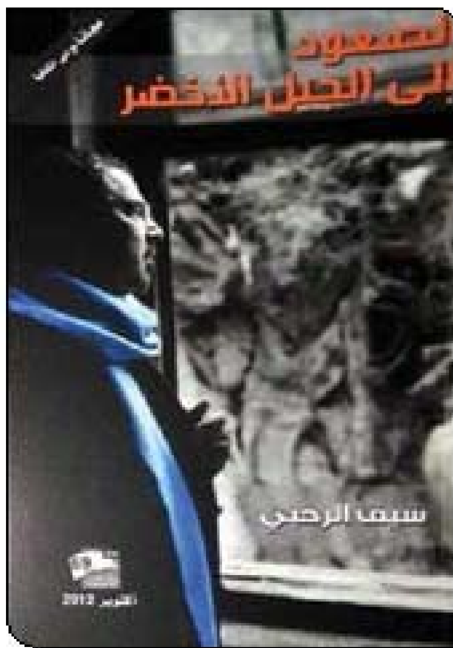
والقصة، نذكر منهم: محمد الحارثي: (عين وجناح)؛ وسعد القرش: (سبع سماوات)؛ ووارد بدر السالم: (رحلة إلى جبال الهملايا الهندية)؛ وأحمد هريدي: (تونس البهية)؛ ويوسف رخا: (بورقيبة على مضض)؛ وخليل النعيمي: (كتاب الهند: الحج إلى هاري-دوار)، وأمجد ناصر: (في بلاد ماركيز) أو غيرها من النصوص.

هذا الاهتمام بأدب الرحلة في عصرنا الحالي تجاوز الدرس الأكاديمي النمطي، وأصبح له قراء شغوفون بهذا الأدب الزاخر بالدهشة، والشعر، والأمكنة، والطرقات، والأحلام، والخيبات، دفق من اللغة الجديدة المحتفية بالواقع الواخز للرؤية تارة، والمنعش للحواس المستنفرة بإيقاع الرحلة السابرة للعوالم المجهولة تارة أخرى.

(٢)

من النافذة يبدأ الشاعر سيف الرحبي توقه، لاكتشاف ما وراء الأمكنة المغلقة. ومنها أيضا يبدأ الحلم برحلة نحو الواقع الحقيقي ومسالكه القاتلة. هكذا يعقد الشاعر العماني الكبير سيف الرحبي أواصر اللقاء بقرائه؛ مؤججا أفق التلقي، ومحفزًا نواحي التأويل في رحلته الموسومة بـ «الصعود إلى الجبل الأخضر»[1]. تؤشر هذه البداية على رغبة جامحة لكسر زجاج اللغة والحياة والانطلاق في وهاد المكان القصي والوعر والسحري، قصد تشييد كيان جديد ولغة جديدة بحساسية جديدة.

يحلو للنقد الفني أن يسمي الفن بالنافذة



المفتوحة، لشساعة تجاربه وتشعبها، وانفتاحه على الحساسيات الجديدة والمتجددة. ويمكننا القول كذلك إن الرحلة الأدبية نافذة مفتوحة على: النثر، والشعر، والسيرة الذاتية، والسيرة الغيرية، والأنثربولوجيا، والدين، والتاريخ، والجغرافية. تلتقط الرحلة من هذه الأبعاد ما يوافق ثقافة الرحالة واستراتيجيته لتأليف رحلة بمواصفات معينة.

إن الرغبة في تقديم شهادة لقراء محتملين ستدفع الكاتب الرحالة أو الرحالة الكاتب أن يكون وصفه للأماكن شاملا وبعيدا عن التغريب، معبرا عن مشاعره ومخاوفه، وساعيا لفهم الواقع، المنزاح أمامه كمشاهد مسرحية. وهذا يجعل القارئ أمام رحلة مزدوجة: الرحلة في المناطق النائية، ورحلة داخلية يكتشف من خلالها الرحالة نفسه؛ ومن ثمّ، فالقارئ يشارك

في هذه المغامرة، كأن هناك اتفاقا ضمنيا بين الكاتب الرحالة والقارئ الذي يطالب بحكايات مثيرة عن جغرافيات لا يعرفها! وهكذا يصبح اكتشافنا للجبل الأخضر هو الاستكشاف نفسه الذي خاضه الرحالة سيف الرحبي بين مدارج الجبل القصي والعصي كقصيدة مستحيلة.

إن علاقة سيف الرحبي بالجبل شبيهة بعلاقة بول سيزان بجبل بلدة «سانت فيكتوار» الذي ارتبط به هذا الفنان الثوري في عالم الفن، بحيث رسم عنه أكثر من ثمانين لوحة جسّد فيها مناظره الطبيعية وإيحاءاته الرمزية. شيء غريب ومدهش أن يصرف الفنان سنوات طويلة لرسم الجبل نفسه، ولفرط عشق سيزان لهذا الجبل كان يرتقيه بوتيرة شبه يومية، راصدا زواياه وانعكاسات الضوء وتحوّلاته الفصلية؛ ومن عجيب الصدف، أنه سقط في حالة غيبوبة وهو يصعد الجبل نفسه، ومات بعدها بأيام.

ولا يمكن أن ننكر كذلك الحضور الثريّ للجبل في الأدبيات العالمية سواء الغربية/ الجبل السحري لرائعة توماس مان، وعند شاتوبريان ولامارتين وريلكه وجان جيونو، أو العربية؛ وعلى سبيل المثال، نذكر حضور جبل التوباد في الشعرية العربية القديمة. إن الزخم الذي تمنحه الجبال في الثقافات العالمية دليل على ارتباط الإنسان ثقافيا ووجدانيا وروحيا بالمرجعية الأسطورية والدينية للجبل.

تبدأ رحلة سيف الرحبي مع الجبل الأخضر قبل الشروع في الرحلة فعليا، قبل سنوات خلت عندما صرح قائلا: (كنت عام ١٩٧٩م في دمشق، أحاول الكتابة شعرا ونثرا.. ذات صباح معطر بالياسمين الدمشقي الأثير إلى القلب الراحل نزار قباني، وأنا أشرب القهوة الأكثر فتنة وسحرا في ذلك الجو الصباحي المبكر، ظهر لي الجبل الأخضر، مجرة حنين وأحداثا وسلالات.. حاولت تسلقه كتابيا، بأدوات وجسد لم يتعودا تسلق مثل هذه الوعورة والغموض.. وعلى الرغم من ذلك مضيت في التجربة.

وهكذا ولدت تلك القصيدة الطويلة بأصواتها وعثراتها، والتي وسمت الكتاب بكامله، حاولت تسلق الجبل الأخضر كتابيا، مثلما أحاول اللحظة تسلقه واقعا وإقامة، ولو بشكل عابر...ص ٧٢/٧١). ثم أتيحت فرصة الرحلة الأولى في مطلع التسعينيات خلال فصل الشتاء. الرحلة الأولى مستعصية لظروفها غير الميسّرة، فلم يكتب لها التدوين بصفة شاملة، لكنها مع ذلك تحققت شرارتها الأولى: (أتذكر أني دوّنت ملاحظات سريعة، لم أعد لاحقا إلى صوغها في سياق.. منها لقطات نسور مسنة أثقلها البرد والزمن، تحلق ذات صباح على منحدرات «القياضية»... ص ٢٣).

أما الرحلة الثانية، فكانت خلال فصل الصيف: (في هذه الرحلة نحو الجبل، كان الصيف على أشده، وكان الهرب إلى واحة الجبل الأخضر أحد الحلول المطروحة.. على سطح الجبل، وتوائمه من الجبال بالفة العلوّ يمكنك أن تتبين الفصول ومعالمها وصفاتها، على عكس مدن السهل وقراه، التي من هيمنة الجو الحار والغبار الكوكبي والأرضي. ص ٢٤). في

الجبل الأخضر تبرز تدرّجات الفصول، ويمكن للرحالة أن ينعم بهواء رطب بعيدا عن مكيفات الهواء، يمكنه أيضا أن ينام بلا أرق. الجبل الأخضر يتحول إلى حضن رحيم يفسح المجال للذكريات وصفاء الرؤية ودقة الملاحظة وفيض الصور الشعرية.

(٣)

نعلم أن الرحله جنس أدبي تنعدم فيه ضوابط النوع، لأنه سرد متلون، وعلى استعداد دائم ليكون مكتوبا في أشكال أخرى منفتحة على أجناس أخرى، يتناص معها بسخاء. كذلك الرحلة الأدبية عند سيف الرحبي، فهي تزخر بمرجعيات عديدة تذوب في كتابته الرحلية على النسق التالي: (السرد، الوصف، الاستطرادات)، هذا النسق الأسلوبي في رحلة سيف الرحبي تعقبه إما تعليقات أو مقاطع شعرية.

الرحله تقوم، إذاً، على تقاطع هذه الثوابت الخطابية الثلاثة؛ يستعيرها الكاتب بالتناوب على شكل وظائف بلاغية؛ تميز أسلوبه وتمنحه حرية اللعب. هذا المنهج العام في الكتابة الرحلية لا نجده إلا عند الشعراء الرحالة، أو الرحالة الشعراء. وطبعا ما دام الشاعر رحالة بطبعه، والشعر رحلة في جوهره، فإننا نطلق صفة الرحالة على سيف الرحبي بكل اطمئنان، بعدما راكم عددا من النصوص الرحلية التي تحمل بصمة شاعرية تذيب الطابع التوثيقي التقريري الذي يطغى على بعض الرحلات التي لم يكتبها شعراء. وبناء عليه، يمكن القول إن رحلات الشعر أكثر شاعرية، إذ يحضر الوعي الشعري لغة ونسقا ودلالات بين طيات تفاصيل الرحلة ووقائعها. ولكي نمثل لهذا الادعاء، إليكم مفتتح الرحلة:

الجبل الأخضر
وهو يسترخي في ظهيرة قائظة
يشبه عرين أسود
تتجه برؤوسها الوبرية الغاضبة
نحو البحر..
ويتبدى حين يكون الجو غائما، على شفا مطر، سفينة أسطورية
تشق عباب الطوفان والزمن وغبار الصحراء، حاملة من كل زوجين اثنين، يقودها الربّان الذي سيتحول لاحقا إلى رمز لإنقاذ البشرية التي أشرفت على الانقراض والمحاق) ص ١٢.

يتقدم الرحالة في هذا المكان الغامض والموغل في الأسطورة محتفياً بالاستثناء الذي يحظى به وهو بين مناظره الطبيعية الفريدة. معبرا في ذات الوقت عن استحالة التواصل مع مكان يفوق اللغة ويتجاوزها بذاكرته وتاريخه وأساطيره: (العناق الذي لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات والصور...) ص١٢، (لكن عناق الصخرة وجذور الشجرة ظل هو مركز الروح المتشظية في هذا الفضاء المهيب؛ ظل الأكثر مهابة روحية وتأملا؛ أكثر انغراسا في الذاكرة التي لم يزدها هذا العناق المترامي إلا عذابا وتيها، كأنما كل تلك الحشود من السنين، كل تلك الحروب والبعاد، لم تزده إلا نضارة وخفاء يستحيل سبر أغواره الدفينة المتراكمة..)

ص١٣. هل أصبح الجبل الأخضر عند سيف الرحبي ذريعة لاسترجاع ذاكرة ضائعة؟ وهل فعل الرحالة نفسه جسرا روحياً وفكرياً وإبداعياً لكتابة نص آخر مختلف ومفقود أيضا. هل يقضي المبدع حياته جميعهاً وهو يبحث عنه في الأمكنة والأزمنة والعلاقات الوجودية؟

(٤)

من بين الأشياء التي يبحث عنها الكاتب في الجبل الأخضر، نجد الطفولة البعيدة: (في طفولة بعيدة، على رغم مرور سنواتها السريعة، ظلت بسكونها العميق، مشهد بهاء في الذاكرة، وعلى انفراط تلك السنوات وتعاقبها؛ ظلت كأنما في حضرة الأبد وخارج إعصار الزمان. منذ عهود طفولتنا البعيدة، في الداخل الحجري لعمان، والجبل الأخضر، يسكن خيالات تلك الطفولة الغضة وعشش فيها، حكايات وخرافات، جبالاً وتلالاً تتناسل من مرابضه الغيبية.. طيورا كواسر، وحروبا لا تهدأ في رقعة التاريخ، إلا وتستمر ويطول استمرارها في لاوعي الجماعات وفي خيال الطفولة والمراهقة الملتهب.. ص١٤).

لكن الماضي بالنسبة للشاعر الرحالة، ليس معينا جافا وأطلالا مهجورة، بل معينا خصبا واستعادة خلاقة، تنبجس لغة واستعارات وتكوينا إبداعيا جديدا ومراجعة للوعي واستمرارية نحو المستقبل.

بهذا الوعي وهذه الحساسية يصبح الجبل القاسي والشاق والصلد كنزا من التاريخ الجمعي الشفهي والمكتوب: حكايات عن القبائل العمانية (بنو ريام، بنو رواحة، أهل سمائل، وسكان صحار، نزوى، مسقط، صور، ظفار، سرور، وادي منصح، وادي الطائيين، وادي سمائل...)، والشعراء (أبو مسلم: ناصر بن سالم البهلاني الرواحي) وقادة الحروب القديمة (محمد نور، أحمد ابن سعيد، الجلندي بن مسعود، ورد بن زياد، حفص بن راشد...)؛ وبهذا أصبح الجبل مصدرا للتاريخ العماني كما يقول الكاتب: (من هذه المنطقة الوعرة النائية، كان العمانيون يشاركون بحسم في أحداث العالم وشؤونه التجارية والسياسية والثقافية والمختلفة.. ص ٦٢).

ولا يخلو هذا التاريخ من الخلفية الأسطورية التي تطبع عادة الجبال العربية. يصرح الكاتب قائلا: (لم يكن ذلك الجبل الواقعي الرابض على مقربة من قرى طفولتنا، إلا أسطورة، ولم يكن للواقع والتاريخ المتراكم إلا ظلال الأسطورة التي تغذيها روافد خرافات شتى كثيرة المرايا والسحرة والأشباح، كما أناشيد البطولة والقتال في الذاكرة... ص ١٧).

بحث الشاعر الرحالة في الذاكرة والمكان لا يتوقف عن ارتقاء مدارج الأسطورة. يقول في مكان آخر: (الذاكرة وحكاياتها، ترفع الواقع وكائناته وحوادثه إلى مستوى الأسطورة ومصباتها، وبخاصة في خيال الأطفال الجبليين، ذلك الخيال الذاهب في البدايات الأولى إلى تلمس أشياء الوجود والعالم.. ص١٨).

لذلك، كان الشاعر طوال الرحلة حائرا

مترددا من الفشل في تفكيك شيفرة الجبل لغة ورموزاً ومعنى. ومنه صفة الأخضر المستحيلة. وبين معالم الحجر الغامض بالرموز والاستعارات. يصر الشاعر على الإقامة في قلب الخرافة والخيال، مصحوبا بذاكرة مبلبلة وخطوات تصعد الذروة بأحلام الشاعر وروح العارف ورغبة السابر. هكذا ينتظم إيقاع الرحلة بين أفعال: (أنظر/ أتوقف/ أحسست/ أتذكر...)، التي تحرك السرد والوصف والتعليق. هل تحكمت جغرافية المكان في طريقة الكتابة؟ لا مناص من الاعتراف بأن رحلة الجبل الأخضر كتبت بأسلوب شاعري واقعي أحيانا، وحلمي أحيانا أخرى وسوريالي في كثير من المقاطع.

إن تأثير المرجعية الشعرية واضح بكل تأكيد. كما أن دُربة الشاعر على المزج بين الشعري والنثري في نصوصه التي أصبحت تحمل بصمة خاصة، يمكن التعرف عليها حتى وإن حجبنا اسم كاتبها.

(٥)

عم يبحث الشاعر الرحالة في رحلته إلى الجبل الأخضر؟

نلاحظ منذ بداية الرحلة أن الشاعر/ الرحالة يبحث عن هويته الشخصية، من خلال تاريخ الأسلاف.

في الواقع الرحلة عند سيف الرحبي ليست فقط نتاج المراجع الأخلاقية والمعرفية المعقّدة التي حددها العالم الذي يعيش فيه، وليست فقط نتيجة مباشرة للسلف الذي ينحدر منه.

إن الهوية بالنسبة إليه، هي نتيجة لمسار فردي طويل، ورحلة غريبة وشاقة اختار أن يقوم بها بعد التخلي عن جزء من طقوسه اليومية المعتادة، التي تتحكم، رغم كل شيء، في وجوده.

لقد حاول الشاعر سيف الرحبي، بهذا المعنى، اكتساب وعي جديد، من خلال البحث الشاعري عن المجهول الذي يعني بالنسبة إليه فقدان العادات، والطقوس المعتادة، والرتابة، لاجتياز حدود اليقين، وهذا ما مكنه من تحديد خرائط جديدة للجبل الأخضر وفهم جغرافيته الجيولوجية والثقافية المنيعتين؛ وفي الوقت نفسه، كانت الرحلة فرصة للتعرف على الذات وما يتغلغل داخلها.

الرحلة ليست في الواقع، حيازة هوية بديلة، وإنما معرفة وترميم الهوية الأصلية. هذا التفاعل الكامل والحقيقي الذي حققه الرحالة استدعى وعيا جديدا بأهمية الماضي الذي لم يعد يبدو عالما بعيدا، ولكن جزءا من المكان الأصلي وشجرة الأسلاف التي منها يبدأ المستقبل.

ويمكن أن نفسر ولع الرحالة بالبحث عن العادات والتقاليد وقواعد حياة الأسلاف بتاريخهم وأساطيرهم التي ساعدته في تطوير تجربته كشاعر، وتحديد سماته ومظهره، برغبته المشروعة في تأسيس خصوصية إبداعية وثقافية فردية ثرية ولانهائية.



من مقدمة «الطرف المرتحل»

■ محمد الشحري - عُمان

الترحال والسفر، والهجرة، والتنقل، حالات عرفها الإنسان العربي قديما وحديثاً، وقد شهدت المنطقة العربية هجرات لأقوام وجماعات من مكان إلى آخر، سواء في البحث عن الكلأ والماء، أو نتيجة لظروف مناخية؛ كما حدث عند انهيار سد مأرب، وتفرقت القبائل العربية الجنوبية على إثره نحو الشمال، أو العبور إلى القرن الأفريقي. وقد يكون السفر لدواعي التجارة؛ فقد كان العرب في الجزيرة العربية يقومون برحلتين في السنة، إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفا، وهذه الرحلة وردت في القرآن الكريم في سورة (قريش): ﴿رِحلَةَ الشِتَاءِ والصَيفِ﴾.

قال الأمام الشافعي:

«سافر تجد عوضا عمن تصاحبه
وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

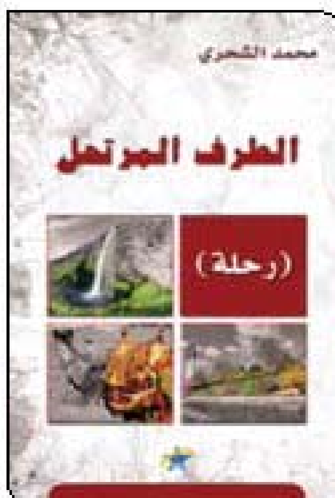
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجرِ لم يطب»

بعد إنشاء الدولة الإسلامية، زاد هذا الترحال والتنقل في الفتوحات الإسلامية، لنشر الدين الجديد، والإقامة لدى شعوب وقبائل أخرى لتعليمهم أصول الدين الإسلامي. ولكن قبل ذلك هاجر بعض المسلمين من مكة إلى الحبشة، نتيجة للمضايقات التي تعرضوا لها على أيدي قريش، وقد عرفت تلك الهجرة، بالهجرة الأولى والثانية.

أما في العصر الحديث وبالتحديد في منتصف القرن التاسع عشر، فقد عرف عرب الشام الهجرة إلى الأمريكيتين طلبا للرزق وهربا من الحكم العثماني الذي حكم بلاد الشام، وفرض أتاوات على الأهالي وألزم الشباب بالخدمة العسكرية، وكانت المنطقة تتعرض إلى موجات من المجاعة والأمراض؛ الأمر الذي دفع بالإنسان إلى البحث عن مكان أفضل. أما عرب المغرب فقد هاجروا باتجاه أوروبا، وذلك لقرب المسافة بينهما، ونتيجة الحملات الاستعمارية في الحقب التي توصف بالكولونيالية، وقد قدم المهاجرون العرب إلى أوروبا إما للعمل أو الدراسة أو للالتحاق بالجيش الفرنسي أو الإسباني؛ كما هاجر العرب الجنوبيون إلى القرن الإفريقي وإلى السواحل الشرقية لإفريقيا التي أصبحت في يومٍ ما تحت الحكم العُماني العربي، كما رحل بعض العرب اليمنيين إلى جنوب شرقي آسيا، وإلى السواحل الغربية للهند، وهناك نشروا الإسلام وازدهرت تجارتهم.

أنا هنا لا أروي هجرة ولا اغترابا، وإنما عن السفر سأحكي.. عن تبدل الأمكنة والأجواء والجغرافيا والثقافة والحضارة سأتحدث.. وسأنثر على بساط الحكايات مغامرتنا في الترحال بين مدن وجزر، عبر وسائط النقل الحديثة في الجو والبحر والبر، بواسطة الطائرات والقطارات والسفن؛ إذاً، سأكتب عن تجربة خاصة عشتها وعاشتها معي امرأة هي زوجتي، رفيقة السفر والترحال، نودع أنفسنا ونستقبل بعضنا بعضا في مطارات ومرافئ ومحطات لا نعرف فيها أحداً ولا يعرفنا فيها أحد، استغرقت الرحلة التي أتحدث عنها شهرا كاملا من أواخر نوفمبر إلى أواخر ديسمبر ٢٠٠٩م، تنقلنا فيها بين ثلاث قارات (آسيا وأوروبا

وأفريقيا)، كما ندرك أن الحياة قصيرة ولا يؤتمن جانبها؛ لذا كان علينا أن نستغل العمر في كتابة مشوار مؤثث ببعض المغامرات والقصص. فما قيمة الحياة إن لم تكن مليئة بالحكي والتجارب؟ وما قيمة العيش في إطار محدد من قبل الآخرين؟! إذاً، هل يسمى هذا المروق والخروج عن رتابة الجماعة خرقاً لنواميسها؟ إذا كان الأمر كذلك! فليكن، فما السمو والعبقرية والإبداع إلا الإتيان بما لا يعهده الأوائل.



بدأت الرحلة من مسقط إلى مدريد ثم إلى جزر الكناري، ثم الرجوع مرة أخرى إلى مدريد ومنها إلى قرطبة، وبعدها غرناطة ومنها إلى برشلونة، ومن هناك إلى باريس ثم البندقية (فينيسيا)، وبعدها إلى جزيرة باليرمو ومنها بحرا إلى تونس، ومن تونس إلى الجزائر، وبعدها الرجوع إلى مسقط.

كنا شخصين، يسافران معا من دون اللجوء إلى شركات الأسفار والحملات السياحية التي تنظم مثل هذه الرحلات، فأنا لا أحبذ مثل هذا النوع من السفر المؤطر، إذ تحدد وكالات الأسفار للمسافر مواعيد الذهاب والإياب وتتدخل حتى في تحديد ساعات النوم وتوقيت الفطور والغداء والعشاء، بل أحيانا يقوم المرشد السياحي بإفساد متعة البحث عن المعلومة ويقطع أحبال الأفكار والتخيل، لذلك أحب السفر وحيدا، واكتشاف الأشياء وحدي مع نصيبي من الحظ والتوفيق، لكن هذه المرة سأصطحب معي شخصا آخر، وستكون هذه المرة الأولى التي لا أسافر فيها وحيدا.

إن ما سيجده القارئ في هذا الكتاب ليست حكايات عن هجرة ولا منفى ولا اغترابا، وإنما سرد لوقائع سفر لزوجين في شهر العسل، سافرا معا وتنقلا في أكثر من مكان، وسيطلع القارئ على مغامرات وثقافات ورحلات عدة توزعت على خمس دول وبين قارتين، ولمدة شهر من نهاية شهر نوفمبر إلى نهاية ديسمبر من العام ٢٠٠٩م.

لولا المتعة التي وجدتها في هذه الرحلة لما كتبت عنها شيئا؛ ففي السفر ما يُمكن أن يُحكى وقصصٌ يجب أن تُسرد، نكتب عن السفر ربما لنقول إننا كنا هنا في هذا المكان أو ذاك، على رصيف الشارع وداخل الغابة، أو على شاطئ أو فوق قمة جبل، ومع مرور الأيام يصبح المكان الذي زرناه جزءا من الذاكرة ومن الحنين.

في أغلب الأحيان نفضح سرائرنا ونبوح بالعواطف العابرة ونكشفها للمتلقي، وهذا ما يمكن أن يُعد سر الكتابة في أدب الرحلة، إنها كتابة المشاعر المستدعاة من أعماق الأمكنة، ومن أرواح الثقافات المتجذرة، ومن أطياف التخيل المارقة.

قد يتفاجأ القارئ بوجود رحلات كتبت في سنوات سابقة للعام ٢٠٠٩م، ولكنها كتابات عن الأماكن التي أُعيد زيارتها من جديد في شتاء ٢٠٠٩م، وهي تونس والجزائر، إذ سبق لي أن زرت تونس في صيف ٢٠٠٢م، وهي الزيارة الأولى، ثم أقمت فيها من سنة ٢٠٠٥م إلى ٢٠٠٨م لدراسة الماجستير، وخلال فترة الإقامة تمكنت من التعمق أكثر في المجتمع التونسي، وسنحت لي الفرصة لزيارة الجزائر عن طريق البحر في أغسطس ٢٠٠٧م؛ ومن هنا، وجدت أن إدراج الكتابات السابقة إضافة جمالية للكتاب، لأن في الكتابة الأولى ما يشبه المتعة أو دهشة التجربة الأولى والتي قد لا تسعف الكاتب فيما لو أراد استعادة التدوين عن المكان الذي سبق زيارته، لأن الكتابة عن الرحلة هي وجدانيات مقرونة ببكارة الأشياء، تتدفق مرة واحدة ومن ثم تنضب أو تقلل من مجيئها؛ لهذا كله أردت أن يشاركني القارئ متعة الزيارة الأولى، والاكتشاف الأول..

الرحلة
في ظل الثورة الرقمية



■ رضوان السائحي - المغرب

اعتدنا في أدب الرحلة منذ القديم أن يخوض الرحالة غمار سفر طويل لا يعرف وجهته بالتحديد، ولا الزمن الذي سيقضيه خلال مسار رحلته المجهولة، ولا يعرف المسافة التي سيقطعها، ولا حتى الوجهة التي سيقصدها؛ وإن كان بعضهم خرج في مهمة معينة وفي زمن معين فأخذته مجريات الرحلة إلى أن يغير كل حساباته، أو يحدث طارئ معين فيغير مسار الرحلة وزمنها، ويعود بعد سنين طويلة، وغيرها من الأمور. وكان الرحالة يهتم بتدوين التجارب والأحداث التي عاشها خلال الرحلة بعد عودته.

مع تطور وسائل النقل والاتصال عبر التاريخ أخذ طابع الرحلة يتغير، إذ تقلصت مسافات المكان والزمان، ولم يعد الإنسان يخوض تجربة سفر طويل من دون أن يعلم الوجهة التي سيتجه إليها؛ فتطور الخرائط ووسائل النقل والاتصال والتطور الرقمي أثر كذلك على طريقة التدوين التي أصبحت مشفوعة بالصوت والصورة، ونقل الأحداث بشكل مباشر وأكثر واقعية. وأصبحت وسائل الإعلام تواكب مسار الرحلة من بلد إلى آخر، وتزود القراء بجميع حيثيات الرحلة وتطوراتها. وبخاصة وأن الرحالة في ظل الثورة الرقمية يقوم بدراسة وافية لمستلزمات الرحلة، ليضع في الأخير مخططا لسفره مستغلا جميع الوسائل الرقمية لحساب المسافة ومعرفة البلدان التي سيزورها ويحدد أيضا تاريخ العودة.

كما أصبح بمقدور الإنسان أن يسافر إلى عدد كبير من الدول من دون أن ينقطع عن عمله، أو يفقد الاتصال بأقاربه وذويه. فإذا كانت وسائل النقل قد اختصرت الزمن والمسافات، فالثورة الرقمية قد ألغت الزمن والمكان. ولعل رحلة الأسرة المغربية توضح بجلاء أنه بمقدور المرء أن يقوم برحلة مع أفراد أسرته حول العالم من دون أن يؤثر على مستقبل أبنائه الدراسي، أو ترابطه العائلي.

ففي السادس من شهر أغسطس ٢٠١٣م، بدأت عائلة مغربية رحلتها حول العالم انطلاقا من مدينة الدار البيضاء، والرحلة تحمل عنوان «بلانيت خميسة» (Planet Khamsa). ستجوب العائلة (المكونة من أب «أنور العثماني ٤٩ سنة» وأم «مليكة الديوري ٤١ سنة» وثلاثة أطفال – ميساء، مايا، مهدي-) العالم في خمس سنوات (من ٦ آب «أوغست» ٢٠١٣م إلى سنة ٢٠١٨م).

وقبل انطلاق الرحلة ناقشت الأسرة مع مسؤولي المدينة مسار الرحلة التي ستبدأ من أمريكا الجنوبية، مرورا بآسيا وأستراليا، ثم العودة إلى إفريقيا بواسطة كارفان، اقتناها، خلال إقامته في مراكش، من شخص كان يستأجرها لفرق تصوير الأفلام في جنوبي المغرب، كمنزل لإقامة نجوم الفن

السابع. وأطلقت عليها الأسرة اسم (مسك الليل) يصل طولها تسعة أمتار، ووزنها ستة أطنان، تم تطويعها لتصبح مسكنا ووسيلة لخوض هذه المغامرة الفريدة في نوعها. وسلم عمدة المدينة مجموعة من الهدايا التذكارية ورسائل الدعم للعائلة، من أجل تسليمها لعمداء مدن البلدان التي سيزورونها من أجل تقديم الدعم المادي والمعنوي لها.

ولم تشكل فكرة اصطحاب الأبناء في الرحلة تساؤلا حول متابعتهم لدراستهم، حيث سيتم متابعة الدراسة عبر المواقع الإلكترونية التابعة لوزارة التعليم الإسبانية التي تعترف بالدراسة عبر الإنترنت، وسيكون بإمكانهم اجتياز امتحانات كل ثلاثة أشهر في القنصليات أو المدارس الإسبانية عبر العالم.

لقد تم التخطيط لهذه الرحلة منذ سنتين، والتفكير خلالها بروية وإمعان في وسيلة النقل، والتأمين الصحي وغيرها، وفيما يخص تمويل الرحلة فقد تم توفيره من مدخرات الأب الخاصة، والذي يتقن أربع لغات، وتقلّب في العديد من المهام.. منها مدير عام سابق في إحدى الشركات في المغرب واشتغل في مؤسسة بنكية.

ستتوجه العائلة في بداية رحلتها إلى مدينة طنجة، ثم بعض البلدان الأوروبية قبل التوجه إلى أميركا اللاتينية لقطع المحيط الأطلسي في اتجاه قارة أمريكا الجنوبية، حيث ستقضي العائلة هناك سنة ونصف السنة.. تجوب خلالها العديد من البلدان وبخاصة الأوروغواي، والأرجنتين، والشيلي، والبرازيل، وبوليفيا، بعدها سيتوجهون إلى القارة الآسيوية، ثم أستراليا لتكون العودة إلى إفريقيا. إذ خطط الزوجان لزيارة نحو (٨٠) بلدا.

وأوضح رب الأسرة أن القيام بهذه الرحلة حول العالم بمعية عائلته، تشكل أحسن وسيلة لتحمل مسؤولية تربية أبنائه والتدبّر في القيم الإنسانية، وإعطائهم فرصة اكتشاف أنماط أخرى من العيش، والانفتاح على الآخرين وعلى ثقافات أخرى. والرحلة حسب الأسرة هي محاولة للسير على خطى الرحالة المغربي ابن بطوطة بطريقة عصرية ومختلفة، تتيح التعرف على حضارات العالم و عادات سكانه.

هذا نموذج لرحلة في ظل الثورة الرقمية، إذ تم التفكير في أدق التفاصيل كاختيار البلدان التي سيزورونها، وإعداد التمويل، وكذا تعليم الأبناء؛ هذا إضافة إلى توفرهم على آلات التصوير الرقمية التي تسهل توثيق الرحلة بجميع حيثياتها، وأجهزة كمبيوتر محمولة تمكنهم من الاتصال الدائم بالعالم، بما فيها الاطلاع على معلومات شاملة عبر الإنترنيت عن البلد الذي سيتم زيارته، وخرائط دقيقة، ناهيك عن جهاز (GPS Global Positioning System) لاستقبال الإشارات والمعلومات من الأقمار الصناعية وتحليلها، لإعطائك الإحداثيات لأي نقطة على الأرض، كذلك خطوط الطول والعرض والارتفاعات والزمن، ويمكنه التعامل مع أكثر من قمر صناعي، وغيرها من الوسائل التقنية التي تسهل مسار الرحلة.

لقد كان السفر قديما من مستلزمات وضروريات الحياة في المجتمعات، دافعه الأساسي البحث عن سبل أفضل للعيش، لكن هناك نوع من الأسفار كانت دوافعه أعمق وأقرب إلى الجنون أحيانا، لأنها ارتبطت بحب الاطلاع على مجتمعات أخرى، واكتشاف بلدان جديدة، أو البحث عن طرق مختصرة عبر البحر، فعُرف هذا النوع من الرحلات بصعوبته، لأنه ارتبط بسفر طويل الأمد يدوم عشرات السنين؛ ولذلك كانت الرحلة تمثل مساراً مجهولاً شائكاً مليئاً بالمصاعب والمخاطر، قد لا يعود منها المسافر سالما، فالإنسان «يفضل دائما أن يعرف المجهول مهما كان الثمن.. وكثيرا ما دفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا.. وماتوا وهم يعرفون أكثر.. ولا بد أن تعاستهم الوحيدة هي أن الموت حرمهم من أن يقولوا ما الذي رأوه»[1].

---

(١) أعجب الرحلات في التاريخ-الجزء الأول- أنيس منصور- ط١٢، مطابع الأهرام التجارية مصر).



من تجاربي في السفر: الطريق إلى قرطبة

■ فؤاد حسن كابلي - المدينة المنورة

ذات يوم، سافرت من مطار بورجيه في باريس متجها إلى قرطبة عن طريق مدريد. كان الجو يومها شديد البرودة، والسماء تمطر بغزارة على رؤوسنا، إلى أن ركبنا الطائرة وكنت وحيداً.. جلست إلى جانب النافذة.. أتأمل رذاذ المطر وهي تنعكس عليه.. وإذا بشاب عرفتُ من لهجته الباريسية أنه فرنسي؛ لأنني أتقن هذه اللغة.. فقد درست في فرنسا.

جلس هذا الشاب الوسيم إلى جانبي، وكان أشقر اللون حلو السمات، في عينيه حَوَلٌ خفيفٌ يزيده ملاحة، وكانت برفقته فتاة لعلها خطيبته، سمراء سمرة لطيفة واسعة العينين، أرخت على صدرها جديلتين سوداويتين طويلتين.. ولفَّت نفسها في ثوب عنابي داكن أدارت من حوله حزاماً شُدَّ على خصرها فجعلها علة نحو يوحي بقوة الشباب!! جلست إلى جانب هذا الشاب.. وكنت أعرف عن غزل الفرنسيين، وأعرف أن لهم طقوساً خاصة لا تستطيع معظم الشعوب تقليدها..! نظرت إليهما، وبدت مفاصلي ترتجف، وبدأت عيوني تحدِّق في الفراغ تشرد وتذهل.. وأحياناً تشدني نحوهما. وكنت أتمنى بسبب هذا الحال سرعة وصولنا وهبوط الطائرة بأي حال من الأحوال، وغدوت أحدق بعيني هنا وهناك، أتأمل خلق الله سبحانه وتعالى.. وجوهاً شابة ووجوهاً أكل عليها الزمن وشرب.. أخيراً اخترت النظر من خلال نافذة الطائرة إلى الأرض الخضراء، والسحاب المتقطع يظهرها ويخفيها.. ويصعد الدخان من لفافة التبغ التي تدخنها هذه الفتاة التي لا يفصل بيني وبينها سوى هذا الشاب، ويدفع هواء مكيف الطائرة بالدخان الممزوج بأبخرة العطر نحوي..! كنت أكره رائحته ومن يومها تبدل الحال.. ضغطت على زر نداء المضيف، فحضر فطلبت كوبا من الشاي أو القهوة.. فهذا هو الوقت المناسب، فقد تفتحت لدي منافذ الإحساس على الرغم من أنني لا أتعاطى هذه المنبهات.. وهبطت الطائرة في مطار مدريد، وحمدت الله، وغادرت الطائرة إلى أخرى.. متجها إلى مدينة قرطبة، ولا أعرف أين كانت وجهتهما، وأقلعت الطائرة



مرة أخرى وأنا أشعر بالوحشة التي كانت تملأ نفسي، فأحسست وكأني ماء محبوس فتحت له فرصة في الأرض، فجرى ينساح في كل اتجاه.. مشاعر مكبوتة أرهقتها حدة الإحساس بالوحدة وفورة الحياة في هذه السن، فقررت من يومها أن تكون أم العيال في المقعد الذي بجانبي قدر المستطاع.. وهذا ما يحدث..

وصلت قرطبة، وبدأت بزيارة المسجد فوجدته زاخراً بالنقوش وقد غامت فوقه الألوان لا تحققها العين.. اجتزت الباب ووقفت أمام باب المسجد.. فدفعته في رهبة، فطالعتني عتمة خفيفة ما لبثت أن أشرقت فيها ألوان الرخام المجزع.. وحجرة العقود المتداخلة.. فلما ألفت عيناي النور، بدت لي غابة رشيقة من أعواد الرخام وعقود ملونة ساحرة الاستدارة، ومستطيلات مزينة بآيات القرآن الكريم.. على مدى لا تحصره العين.. فسرت كالمسحور بينهما حتى أقبلت على المحراب.. وهناك رأيت الجمال الذي يعقد اللسان، ولست أعرف كيف يوصف مثله.. والمحراب حجرة صغيرة من الرخام المصقول.. يبين كأن الماء ينسكب عليه، أبيض، أحمر، أخضر، لا يعرف له لون محدد.. تتعدد في سقفه صدفة ضخمة من الرخام الناصع، تحمل خطوطها الممتدة الصوت فتذيعه في أنحاء المسجد..

وقفت مذهولاً أتطلع على ما لا يرى الإنسان مثله إلا حينما تسعفه الأقدار.. وفجأة غامت عيناي، وتخيل لي أن أعمدة المسجد تهتز أمامي من خلال الدموع، ونفسي تسألني: ترى لماذا بكيته؟! عن يوم ذلك الماضي الشامخ..؟ أم الحاضر الذي نحن فيه؟! الله وحده أعلم.



جامع قرطبة



مشاهير الرحالة حول العالم

■ مرسي طاهر أبو عوف - دار الجوف للعلوم

يزخر الإنتاج الفكري العربي بالحديث عن مشاهير الرحالة حول العالم؛ وباستعراض هذا الإنتاج نجد أن الحديث عن هؤلاء المشاهير باستفاضة يمثل الحديث عن قطاع كبير من التراث الفكري والأدبي ليس العربي فقط، بل العالمي كذلك. هذا التراث.. يبحر بنا أحياناً تجاه أدب الرحلات، وأحياناً أخرى تجاه الجغرافيا والتاريخ، ولذلك أسباب معروفة منها أن سبب شهرة هؤلاء الرحالة هو في الواقع يمثل استكشافاً لمناطق جغرافية، وكذلك تدوينهم للتاريخ العالمي المرتبط بوجود قوى عالمية أو إمبراطوريات في تلك الأزمان. كذلك اهتم هؤلاء بتدوين الحوادث والواقعات التي مروا بها أو اكتشفوها. وفي رحاب تلك الاستكشافات، نشأ نوع جديد من الكتابات أطلق عليه أدب الرحلات؛ أسهمت هذه الكتابات في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لتلك البلاد وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، وألقت الضوء على تاريخها وأفكار سكانها، وعادات وتقاليد قد تختلف وقد تتفق مع عادات البلاد التي جاءوا منها؛ ما ساعد على نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى، وإثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد.

وعلى طريقة الملاحين، اكتشفت الحدود الموضوعية لمقالي عن مشاهير الرحالة، حتى أستطيع أن أبحر معهم في سياحة فكرية موجزة تحاول التعريف بهم قدر الإمكان، وتوضح للقارئ جانباً مهماً من التراث الإنساني الذي تركوه لنا، وفضلهم الكبير على الإنسانية العالمية.

عرف الإنسان الرحلة أو الترحال والتنقل بفطرته التي جبل عليها منذ بدء الخليقة؛ منذ أن هبط آدم وحواء إلى الأرض ليعبدوا الله، وليعمرا بأولادهما الأرض وينتشروا فيها، كما ذُكرت الرحلة في القرآن في سورة الفيل، ما يدل على معرفة الإنسان بالرحلة.

أما تدوين تلك الرحلات أو تسجيلها، فقد قام به الإنسان بعد قرون طويلة، فبدأوا يسجلون تلك الرحلات عن طريق الرسم على

جدران مبانيهم، كما هو موجود على جدران معبد الدير البحري بمصر العليا صور رائعة لسفن الملكة حتشبسوت (من ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية)، عند عودتها لمصر بعد رحلتها إلى بلاد «بنت» في الجنوب.

أما الفينيقيون فلهم رحلات عديدة من خلال المحيط الأطلسي إلى الجزر البريطانية، واستطاعوا أن يقيموا مستعمرات على طول بحر الروم (الأبيض المتوسط) وفي إسبانيا؛ وخَلَفهم الإغريق، فأقاموا مستعمرات في بحر الروم والبحر الأسود، واختلفوا عن الفينيقيين في أنهم تركوا العديد من المعلومات عن جغرافية العالم في زمانهم عن طريق التدوين والتسجيل. ثم جاء العرب الذين ورثوا عن جدودهم السابقين حب الرحلات، واشتهر كثير من الرحالة العرب الذين سجلوا كل مشاهداتهم مع جغرافية البلاد التي زاروها، وقد بدءوا برحلة الحج، ثم استهواهم الترحال.. فجابوا بقاع العالم الإسلامي كله؛ ثم بدأ بعد ذلك نشر الإسلام، فجابوا بقاع العالم براً وبحراً، ومن تلك الرحلات نشأت أقاصيص السندباد البحري والسندباد البري.

وربما لم تذكر الكتابة عن الرحلة إلا بعد الهجرة النبوية والفتوحات الإسلامية؛ إذ ظهرت كتابات عن رحلات قام بها الرحالة العرب جابوا البلاد حتى وصلوا إلى بلاد الصين والهند وبلاد ما وراء النهر وتركيا وغيرها.

وأخذت جيوش المسلمين في عصر الفتوحات الإسلامية تغزو الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان أكثر الخلفاء يطلب من قادته أن يصفوا له البلاد المفتوحة حتى يعرفونها كمن رآها.. وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين طلب من عمرو بن العاص أن يصف له مصر، فبعث إليه بخطاب مشهور، يصف فيه جغرافية مصر ونيلها ومدنها وشعبها. ويذكر ابن الأثير أنه عندما غزا قتيبة بن مسلم مدينة بخارى سنة ٧١٨هـ، طلب منه رسم خارطتها وما حولها، ثم جمع الخليفة وزراءه.. ومنهم الحجاج بن يوسف الذي أشار بخطة الفتح بناء على الرسم، وبذلك نجح قتيبة في فتحها. ومما يروى في ذلك أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله(٩٥٢-٩٧٥م) استدعى فريقاً من علماء الجغرافيا المسلمين، وأمرهم أن يرسموا له خريطة كبيرة للعالم، لكي يُجَمِّل بها جدران قصره في القاهرة، وقد وصف المقريزي تلك الخريطة فقال: إنها تكلفت اثنين وعشرين ألف درهما، وهي عبارة عن مقطع كبير من الحرير الأزرق، غريب الصفة، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير، فيه صورة أقاليم الأرض، وجبالها، وبحارها، ومدنها، ومسالكها، وفيه صورة مكة والمدينة، وقد كُتِب اسم كل مدينة وجبل وبلد ونهر وطريق بالذهب أو الفضة.

في السطور القادمة نتناول بشيء من الإيجاز أشهر الرحالة العرب والأجانب، الذين تركوا لنا تراثاً كبيراً اقترن بأسمائهم، وصار منارة للعالم على مدار تاريخه.

أشهر الرحالة العرب

ابن فضلان

صاحب كتاب رسالة ابن فضلان، ولد في القرن العاشر الميلادي، أرسله الخليفة العباسي المقتدر بالله من بغداد إجابة لملك الصقالبة - في روسيا - لتعليمه الإسلام،

وبناء مساجد وحصن له من أعدائه، فأرسل ابن فضلان على رأس وفد العلماء والفقهاء، وأمضى ثلاث سنوات من (٩٢١- ٩٢٤م) في بلاد الروس والصقالبة والخرز والاسكندنافيه.

ابن جبير

صاحب كتاب «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، عرف بـ: رحلة ابن جبير، وهو من الأندلس، اسمه محمد بن أحمد بن جبير الكناني، المعروف بابن جبير ولد في بلنسية بإسبانيا سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥م)، وتعلم على يد أبيه وغيره من العلماء في عصره، ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبدالمؤمن ملك الموحدين في وظيفة كاتم السر.. فاستوطن غرناطة، وكان الأمير أبو سعيد قد استدعاه يوما ليكتب عنه كتابا وهو يشرب الخمر، فأرغم ابن جبير على شرب سبعة كؤوس من الخمر وأعطاه سبعة أقداح دنانير، لذلك صمم ابن جبير على القيام برحلة الحج بتلك الدنانير تكفيرا عن خطيئته، وأقام في سفره سنتين، ودوَّن مشاهداته وملاحظاته في يوميات، وذلك نحو سنة ٥٨٢هـ/ (١١٨٦م)، وتداول كتابه الشرق والغرب، حتى قام المؤرخ والمترجم الإنجليزى «ويليام رايت» بنشره وطبعه في كتاب جمع عددا كبيرا من الرحلات لرحالة وحجاج عرب وأجانب مسلمين ومسيحيين ويهود.

العلامة الإدريسي

صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، واسمه أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس، أحد كبار علماء الجغرافيا، كما أنه كتب في التاريخ، والأدب، والشعر، والنبات، ودرس الفلسفة، والطب، والنجوم في قرطبة، ولد في مدينة سبتة شمالي المغرب عام ٤٩٣ هـ (١١٠٠م)، ومات عام ٥٦٠ هـ (١١٦٦م). زار الحجاز ومصر، ووصل سواحل فرنسا وإنجلترا. وسافر إلى القسطنطينية وسواحل آسيا الصغرى.

استُخْدمت خرائطه في سائر استكشافات الرحالة الغربيين في عصر النهضة الأوربية، وقد حدد في خرائطه التي نشرت بكتابه اتجاهات الأنهار والمرتفعات والبحيرات، ومنابع نهر النيل، وضمنها أيضًا معلومات عن المدن الرئيسة، إضافة إلى حدود الدول. كما انتقل الإدريسي إلى صقلية بعد سقوط الحكومة الإسلامية، لأن ملكها في ذلك الوقت «روجر الثاني» كان محباً للمعرفة، فشرح الإدريسي لروجر موقع الأرض في الفضاء مستخدمًا في ذلك البيضة لتمثيل الأرض، شبه الإدريسي الأرض بصفار البيضة المحاط ببياضها تماما، كما تهيم الأرض في السماء محاطة بالمجرّات.

ابن بطوطة

ولد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) في المغرب، وينتسب إلى عائلة عرف عنها عملها في القضاء. وفي فتوته درس الشريعة، وقرر عام ١٣٢٥م وهو ابن عشرين عاماً، أن يخرج حاجاً، كما أمَّل من سفره أن يتعلم المزيد عن ممارسة الشريعة في أنحاء بلاد الإسلام. وخرج من طنجة سنة ٧٢٥هـ، فطاف بلاد المغرب، ومصر، والشام، والحجاز، والعراق، وفارس، واليمن، والبحرين، وتركستان، وما وراء النهر، وبعض الهند والصين وأواسط أفريقيا. واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم، وكان ينظم الشعر، واستعان بهباتهم على أسفاره.

وعاد إلى المغرب الأقصى، وذهب إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي أديب السلطان، بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ، وسماها (تحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

ترجمت رحلته إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ونشرت بها، وترجمت فصول منها إلى الألمانية ونشرت أيضا بها، وكان يُحسن التركية والفارسية. واستغرقت رحلته «٢٧» سنة (١٣٢٥-١٣٥٢م)، ومات في مراكش سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م). تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وموسوعاتها بأمير الرحالة المسلمين. وأطلق علماء العصر اسم ابن بطوطة على إحدى الفوهات البركانية على سطح القمر.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، وقد استغرق في مجموعها نحو تسع وعشرين سنة، وكان أطولها الرحلة الأولى التي لم يترك خلالها ناحية من نواحي المغرب والمشرق إلا زارها، وكانت أطول إقامة له في بلاد الهند، حيث تولى القضاء سنتين، ثم في الصين حيث تولى القضاء سنة ونصف السنة.

وفي هذه الفترة وصف كل ما شاهده وعاينه فيهما، وذكر كل مَن عرفه من سلاطين ورجال ونساء، ووصف ملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم وضيافتهم، وما حدث في أثناء إقامته من حوادث وحروب وغزو وفتك بالسلاطين والأمراء ورجال الدين، وكان ابن بطوطة خلال إقامته هذه مندفعا بعاطفته الدينية إلى لزوم المساجد والزوايا، فلم يدع زاوية إلا وزارها ونزل ضيفا عليها.

أما رحلته الثانية فكانت إلى إسبانيا، والثالثة إلى السودان.

ياقوت الحموي

وهو رحالة جغرافي، وأديب وشاعر وخطاط ولغوي، ولد في مدينة حماة عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م، ويلقب بالحموي نسبة إلى مدينته حماة، واسمه شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ)، أديب ومؤلف موسوعات، وخطّاط، من أصل رومي.. اشتغل بالعلم، وأكثر من دراسة الأدب، وقد سمّى نفسه (عبد الرحمن). وأهم مؤلفات ياقوت الحموي كتاب (معجم البلدان) الذي ترجم وطبع عدة مرات.

ومن رحالة العصر الحديث

محمد حسين هيكل: صاحب كتابي:عشرة أيام في السودان، ويوميات باريس.

إبراهيم عبدالقادرالمازني: صاحب كتاب رحلة الحجاز، وواحد من جيل العمالقة، وهو كاتب روائي وشاعر مصري عبقري، ولد في القاهرة في مصر ١٨٨٩/٨/١٩م.

زكي مبارك: كاتب مصري له ذكريات بغداد، وذكريات باريس.

يحيى المعلمي: كاتب سعودي له رحلة علمية ورحلات أخرى.

أنيس منصور: الكاتب المصري الكبير المعاصر، الذي كتب أجمل كتب أدب الرحلات مثل: «حول العالم في ٢٠٠ يوم»، و«بلاد الله لخلق الله»، «غريب في بلاد غريبة»، «اليمن ذلك المجهول»، «أنت في اليابان وبلاد أخرى»، «أطيب تحياتي من موسكو»، «أعجب الرحلات في التاريخ».

د. عزة بدر: كاتبة مصرية، صاحبة كتاب أم الدنيا، وكتاب «رحلات بنت قطقوطة

٢٠٠٧م».. تصف فيه رحلتها إلى اليونان وإيطاليا وبلاد أخرى.

وهناك عميد الرحالين.. الرحالة السعودي المعروف **محمد بن ناصر العبودي** (١٣٤٥هـ - ١٩٣٠م) أديب ومؤلف ورحال سعودي، ولد في مدينة بريدة، ويشغل منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي. أتاح له عمله في الرابطة زيارة معظم أصقاع العالم، فكان لمشاهداته العديدة واطلاعاته أن تثمر أكثر من مائة وستين كتاباً في أدب الرحلات. منح ميدالية الاستحقاق في الأدب عام (١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م)، وعلى الرغم من أن تعليم الشيخ محمد بن ناصر العبودي كان تعليماً دينياً في مجال الشريعة الإسلامية. إلا أن معظم مؤلفاته كانت أدبية، ويصب الجانب الأكبر منها في مجال أدب الرحلات، حيث يعد من الرواد في هذا المجال، والجزء الآخر من مؤلفاته في مجال اللغة، وقد بلغ عدد مؤلفاته المطبوعة نحو (١٢٨) كتاباً، ويوجد لديه نحو (١٠٠) كتاب آخر ما تزال مخطوطة تنتظر الطبع.

مشاهير الرحالة الغربيين

هيرودوت (٤٨٤ ٤٢٥) ق. م

مؤرخ ورحالة كبير لقب بأبي التاريخ، زار مصر وآسيا الصغرى وبلاد الإغريق وصقلية وإيطاليا، وسجل في تاريخه حياة مائتين من الشعوب والقبائل المختلفة الأجناس، وتاريخه يعد من تراث الإنسانية الخالد.

ميغاستين (القرن الثالث قبل الميلاد)

مؤرخ ورحالة يوناني قام ما بين سنتى(٣٠٢ .٢٠٧ ق.م) بمهمة دبلوماسية كلفه بها أميره سلوقس نيكاتورا، إلى الملك الهندي ساندراكوش، وقد سجل رحلته إلى الهند في كتابه: ses indica اعتمد عليه كمرجع المؤرخ سترابون.

بليني (٢٣-٧٩ق.م)

رحالة جغرافي لاتيني، توفي أثناء هيجان بركان فيزوف سنة ٧٩٨ق.م، ألف التاريخ الطبيعي، وهو موسوعة ودائرة معارف علمية في (٣٧) مجلدا، وهو الذي أشار إلى وجود مخلوقات غريبة - يأجوج ومأجوج- وأن سدا حديديا يحصرهم ويعزلهم عن البشر.

بطليموس (القرن الثاني بعد الميلاد)

رحالة وجغرافي وفلكي، وهو مؤلف دائرة معارف فلكية (المجسطى) نقل عنه جغرافيو العرب.

دمنغو باديا باي العباسي الإسباني

أول رحالة إسباني زار العالم الإسلامي، زار المغرب الأقصى سنة ١٨٠٣م في عهد السلطان سليمان العلوي، والجزائر، وليبيا، ومصر، والشام، والجزيرة العربية، ودخل مكة والمدينة حاجا سنة١٨٠٧م، وله رحلة مهمة في مجلد.. نشرت باللغة الإسبانية واقترح على مراكز الترجمة في السعودية أو في دول الخليج ترجمتها إلى اللغة العربية وطبعها ونشرها.

هنري مونديل (٦٦٥هـ-١٧٠١م)

رحالة له كتاب (رحلة من حلب إلى القدس سنة ١٦٩٧م) وصف فيه رحلته إلى بلاد لبنان والقدس.

ماركو بولو

كان البحار الإيطالي ماركو واحدا من بين

أوائل الأوربيين الذين زاروا الصين والهند والمناطق الشرقية البعيدة الأخرى، ولم يحظ إخباره عن تلك الأماكن بالتصديق، لكنه شجع فكرة التجارة مع الشرق، وكان أبوه وعمه تاجرين، ما ساعده كثيراً في التغلب على المفاهيم التقليدية للتثمين والتداول الأجنبي والتعامل مع سفن الشحن.

كريستوفر كولمبس

مكتشف أميركا.. المستعمر القادم من أوربا، يعد كولمبس أول من وطد العلاقة بين الأمريكيين الأصليين والأوربيين.

فاسكو دي جاما

ويعد أعظم بطل في تاريخ الاستكشاف الأوربي، طاف هذا الرحالة حول رأس الرجاء الصالح، وأعلى الساحل الشرقي لإفريقيا، واكتشف بعد ذلك الطريق التجاري إلى الهند، أصبح زعيما للهند البرتغالية عام ١٥٢٤م، وذلك بعد حصوله على الماجستير في الرياضيات والملاحة.

فرديناند ماجلان

مستكشف برتغالي، كان أول من دار حول العالم واكتشف مضيق ماجلان أقصى جنوب أمريكا الجنوبية، ولد في سابوزا، لكنه تبنى الجنسية الإسبانية لاحقا كجنسية الملك (تشارلز الأول)، ليستكشف الطريق المؤدي إلى جزيرة الطيب، ويعد صاحب أول رحلة بحرية حول العالم.

وإذا ما تأملنا سيرة الرحالة الغربيين الأوائل، سنلاحظ أنهم كانوا يقومون برحلاتهم رغبة في الحصول على المال والذهب والعطايا الملكية، التي يمكن أن تعود عليهم من وراء كشف جغرافي جديد، كما كان يتمنى كريستوفر كولومبوس الإيطالي عندما كان يسعى للوصول إلى الهند طمعا في كنوزها، فوصل إلى جزر الكاريبي في القرن الخامس عشر، وظن خطأً أنها الهند، ومثله فاسكو دي جاما البرتغالي الذي اكتشف الهند فيما بعد عن طريق رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر ١٤٩٨م، ولن ننسى أنه لولا مساعدة الرحالة العربي «أحمد بن ماجد» لما وصل إلى الهند. ربما لم يكتب الرحالة الغربيون بأنفسهم عن هذه الرحلات، وإنما كتب عنهم من عاصرهم وقتها.

وإذا نظرنا إلى الدافع وراء رحلات الرحالة العرب، نجد أنهم كانوا يسافرون طلبا للحج أو الرزق أو العلم، إلى جانب الرغبة في المعرفة والاستكشاف ويبقى السبق في هذا المجال للرحالة العرب.

أما الرحالة المعاصرون سواء كانوا عربا أم غربيين، فهم كتاب في الدرجة الأولى، قد تسوقهم الظروف إلى بلاد معينة، فيكتبون عنها، أو يسافرون إلى أماكن بعينها بهدف دراستها والكتابة عنها.

وتنطلق سفينة الرحالة على مدار السنين تجوب البحار والمحيطات والجبال والأنهار لتبحث لنا عن مكنون تراثنا الإنساني، وتكتشف المزيد من مخلوقات الله على أرضه، وسبحان من قال «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» صدق الله العظيم.

من أين أبدأ!!؟

قراءة في ديوان الشاعرة نبيلة الخطيب

عتبات وعلامات لغوية

■ د. بلال كمال رشيد*

من أين أبدأ؟!

سؤال عادي لا فنية فيه.. سؤال متاح.. مشاع تقترفه كل الألسنة.. وهو سؤال مبتذل.. منهك شاخص على قارعة الطريق.

فكيف يمكن لهذا السؤال أن يكون عنواناً لديوان شعري؟!

عتبةً نصية أولى تجمع وتؤالف بين المبدع والمتلقي!

كيف يمكن لهذا السؤال أن يكون عنواناً؟ والعنوان بحد ذاته نصّ يجمع النصوص ويختزلها!

من أين أبدأ؟!

سؤال يفضي إلى فضاء من أسئلة شتى:

تستفهم.. تستغرب.. تتعجب.. تستنكر:

- هـــــل يصــــلـــح الـــقـــــول
إن ضـج الــوجـيــبُ بـهـــا؟![1]

- مـاذا أتـى بـك؟[2]، وكيف تقبل؟[3]، أقلت مات؟[4]، من أين مروا ومالي لا أرى أحدا[5].

- كـيـف مـضــى؟! وكـم مـن الـدم
ذالــك الــيــوم قــد سُــفـكـا؟[6]

- ألا تـرى القلـب مخضـراً بـه طـربُ
والنار في جنبات الصدر تشتعلُ؟![7]

- توحـدت قِبلـةُ المسلميـن فهـل
بـاتت تفرقهـم عن شرعهـم نِحَـلُ؟![8]

- هــو إنمـا وجـع القلـوب ونـارهـا
إن أُججـت أنـى لهـا أن تُخمـدا[9]

إذاً هو سؤال يفضي إلى أسئلة.. والسؤال يدل على السائل.. فكيف إذا كان السائل شاعراً.. ضمير الأمة.. الناطق الشعوري بآهاتها وويلاتها، وحبها وغضبها؟! الذي يختزل الأزمنة والأمكنة بقول تنبض به القلوب قبل أن تنطق به الشفاه؟!!!

من أين أبدأ!!؟

عتبة أولى.. يحملها الغلاف علامة لغوية دالة، تساندها علامتا تعجب وعلامة استفهام.. فلماذا سبقت علامتا التعجب علامة الاستفهام؟!

ولماذا كانت علامتا التعجب اثنتين وعلامة الاستفهام واحدة؟!

حيرة.. توجع.. تأوه... استفهام... سؤال.

من هنا، بدأ السؤال يفارق العادية؛ ليدخل في الفضاء الفني والشعري.. ولعل صورة الغلاف من خلال خطوطها المتعددة والمتعرجة والمتداخلة والمختلفة بالألوان والاتجاهات تطرح السؤال من جديد، بلغة جديدة، وإيقاع مختلف: من أين أبدأ؟!

ولا معالم في الطريق؟! من أين أبدأ وكل شيء متلاطم.. متداخل..

وأنت لا تعرف المبتدأ ولا المنتهى؟!

- أطلق جناحكَ

لا سِلْمٌ ولا سَلَمٌ

حيث السلام الذي نهفو له

صبا

كيف الذي كان..

والدنيا تميد به

من هوله... خبرٌ

قد بات مبتدأ

من ذا يردُّ إلى الأطفال

صحوتَهم

كيف الصباح انتهى

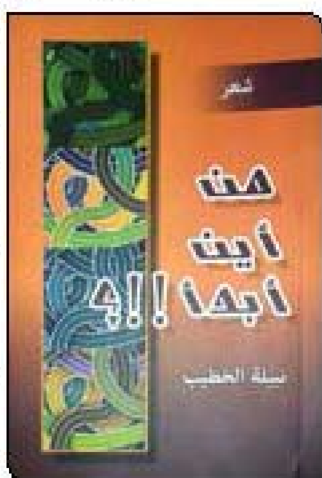
من حينما ابتدأ؟!!(10)

من أين أبدأ!!؟

سؤال يخرج عن العادية إلى الفنية من خلال الأسئلة وما سألت، وكيف سألت؟ من خلال الموضوعات التي اختارتها، والألفاظ التي شادتها، فخرجت من العتبة الأولى عنواناً إلى عناوين قصائدها التي جاءت بعناوين: (من أين أبدأ، أثقلت نوماً، عاشق الزنبق، أضعت وجهي، أطلق جناحك.. يدزفون الحساسين)، وكلها عناوين شعرية موحية دالة..

وإذا كان السؤال الأول (من أين أبدأ!!) فإن النهاية تنتهي بها وبنا إلى «الباذان» قريتها الأولى.. حيث الجنة والنعيم والخلود.

في هذا الديوان تتآخى المدن والقرى؛ لأن القلب النابض بها واحد.. فتجد «الباذان» قريتها وتجد القدس والكرك والعراق واليمن..:



صار العراق عُروقاً كلها فُصِدتْ

وكلما قام فيهم عاقلٌ عُقلوا

ولا السعيد سعيداً بات في يمنٍ

ولا يسود على السودان من وُكلوا(11)

وإذا كان الزمان متغيراً فإن المكان ومكانة المكان ثابتة:

القدسُ تورق

والزمان يبابُ

وهي الحضورُ

إذا الزمان غيابُ(12)

تتفنن نبيلة الخطيب بلغتها وهي تقف أمام المفردات؛ فتقارن وتقارب بين لفظة وأخرى: جناساً وطباقاً وتكون صوراً شعرية متعددة..

تقف أمام المفردة سواء أكانت اسماً أم فعلاً، وتوظف من حروفه كلمات أخريات اتباعاً إلى جرس موسيقي، أو حس شعوري، أو لفتة جمالية؛ لتؤكد المعنى؛ فتجعل «للعراق عروقاً»، وتأتي بالفعل «يسود» للسودان(13).. ومن «الرزانة» «تأزن»:

فلقد تأزّنُ الرزانة عفةً

أحصنَّ لا يَمْدُدن طرفاً أو يداً(14)

وهذه العتبات تفضي إلى عتبة الاستهلال:

ماذا أتى بك؟! قال: الوجدُ والولَهُ

فَطِرتُ زهواً وخلتُ الكونَ لي وله(15)

فتجد الثنائيات بين الوجد والوله، والذات والآخر، تجد القافية تتغنى وحدها منسابة مريحة ومستريحة، وهي تماثل «الوله» بـ العاشق والمعشوق بـ «لي وله»، بالحاضر والغائب، لا يفصل بينهما إلا الواو، بل تجمعها

الوار اتصالاً، ويتحقق الوجد والوله والطيران والأحلام.. ثم تنهي قصيدتها بما بدأت:

قعدت أسائل علّي لستُ حالمةً
ماذا أتى بك؟! قال: الوجد والولهُ(16)

وتقول:

مَسّ الصِّبا خدَّ الصِّبا فتوردا
والقلب أطربه الجمال فغردا(17)

لما رأت حَوَر العيون وحُورَها
هُرعت بلا وعي ترود الموردا(18)

فتجمع ألفاظ (البوح والنوح ص89)، و(الروح والرَّوح ص89)، و(الظل والطل ص88)، و(الحس والحسن ص87)، و(حي وحري ص87)، و(ظل وطل ص75)، و(هَمّ وهِمَمٌ ص70)، و(أيّ وأيّ ص18).

وتظهر في الديوان أبيات تذهب مذهب المثل والحكمة أو بيت القصيد:

- فمن تبدّل داراً دون موطنه
أنّى يطيب له في عيشه بدلُ؟(19)

- وكلُّ كرب إذا استفرجته فَرَجٌ
وكل جدب إذا استسقيته خَضِلُ(20)

- لا يلتقي الليل والإشراق في زمن
من رام ذاك فلا أمسى ولا أضحى(21)

- لا يجمع الأغصان إلا ساقها
هل يستوي نبتٌ بلا سيقان؟(22)

من حق الشاعرة أن تسمي ديوانها «من أين أبدأ؟!» وهي ترى الدنيا ضيقة مظلمة:

«ما أضيق الدنيا
وأظلمها!
ما أبعد الحلم
حتى لو نراه دنا!»(23)

وهي تعدد الجراحات تلو الجراحات.. وهي تتعذب: عاشقةً، ومواطنةً، وعربيةً، وإسلاميةً، فحيثما يممت وجهك فثمة جرح.. بُعدٌ.. غُربة.. جراح.. احتلال.. استغلال.. كذب.. انقلاب.. ربيع دامٍ.. وبكل ألم تقول للحجيج: بباطن المحرومين دم(24).

من أين أبدأ؟!!

إنه سؤال عادي، في زمن غير عادي، وفي مكان يعدو عليه العوادي.. ولم يبق غير الشعر نبكيه ويبكينا.. وكما تقول نبيلة الخطيب:

هذا هو الشعر لا قُطّت مجالسه
ولا استحالت أهازيجُ المنى نوحا
هذا هو الشعر صهوات مُطَهّمةٌ
مرحى لخيّالها إن أقبلت مَرحى(25)

من أين أبدأ؟!!.. وكيف أنهي؟.. سؤال نبدأ به وننتهي إليه.. ديوان شعر قال عنا ما كان فينا.. وإن كان العرب قالوا يوماً: (قطعت جهيزة قول كل خطيب).. فنقول اليوم: قطعت نبيلة قول كل خطيب..

---

* جامعة البلقاء التطبيقية – عمان.

(1) ص11.
(2) ص15.
(3) ص15.
(4) ص31.
(5) ص35.
(6) ص36.
(7) ص67.
(8) ص70.
(9) ص136.
(10) ص28.
(11) ص69.
(12) ص97.
(13) ص69.
(14) ص139.
(15) ص15.
(16) ص19.
(17) ص140.
(18) ص136.
(19) ص69.
(20) ص74.
(21) ص67.
(22) ص47.
(23) ص21.
(24) ص30.
(25) ص62.



سؤال اليومي والكتابة في مجموعة «استثناء» للقاص إبراهيم الحجري

■ عبدالغني فوزي*

توطئة: صدر مؤخرا ضمن منشورات مجلة «مقاربات» المغربية مجموعة قصصية بعنوان «استثناء» للقاص المغربي إبراهيم الحجري. وتمتد على مدار سبع وسبعين صفحة من الحجم المتوسط، احتوت على سبعة عشر نصا، منها: النظر من تحت، حوار الأعين، مثل هذا الحشر، أضغاث أحلام، مغارة الحقيقة. ومن الملاحظ أن القاص قسّم مؤلفه إلى جزأين دون الإشارة لذلك، الأول يضم قصصا قصيرة والثاني يحتوي على قصص قصيرة جدا. وهي بمثابة إقامة قصصية بغرف متنوعة، لكل منها تأثيثها الخاص بها. وغير خاف هنا، أن جمالية القصة القصيرة جدا تثير جدالا واسعا في علاقتها بنفسها، وبالقصة القصيرة. ذلك أن القصة القصيرة جدا تبحث في نصها ونقدها عن خصوصيتها وأفقها الجمالي المستقل والخاص. سأقارب هنا في هذه المجموعة القصص القصيرة.

متن القصص

تلفحك حرارة المجموعة، وأنت تقرأ متنها قصة قصة. قصص تلعب مع اليومي وكثافته الطارية على تناقضات المعيش والحياة. وهي في هذا، تسعى إلى امتصاص المفارقات اللصيقة أساسا بشخوص إشكالية، ضمن يومها وتقطيعها المكاني. شخوص تفرقها سبل البحث عن ما يؤمن وجودها ويبرر وجودها؛ ولكنها تتوحد في ذاك العمق المشدود للأصول الصامتة والمتجلية في عبوسة الملامح والمكان وملامح أفق موصد. لكن ضمن رقعة مكانية تُعَدُّ بشكل من الأشكال امتدادا طبيعيا لثقة اجتماعية. ومن ثمّ يحصل التداخل إلى حد تشكيل تلك الوحدة الدائرية التي يؤدي فيها كل ملمح إلى آخر؛ ضمن نسج دائري شبيه بدوامة حياة ووجود. تقول المجموعة في قصة «النظر من تحت» ص ٥:

«انطفأ وهيج ذلك النور في عينيه

فجأة، وانقلبت أوهام الحماس الطفولي إلى عتمة ليل مفزع. استنجد مرات بالبحر، ذلك الأفق العصيب لعله يبلغ غمار حزنه. يغوص كل مساء بعينيه الواسعتين في صخبه، يسائل ملامحه الفرحة الفضوية. يبتسم يبكي قليلا كثيرا. وحده البحر كان يعرف سيرته ويمرارة يصفق بجناحيه في وجه العالم».

تبقى الشخصية المركزية في المجموعة المتشكلة من مداخل تتمثل في الدراسة والشهادة وهي بؤرة هذه القصص.. ملامح تتقاطع مع شخوص أخرى، لها المسار نفسه والمصير ذاته. هنا، تبدو أغلب النصوص مشدودة لأفق موصد، وليومي سالب، إلا من ذاك النور المطارد لحقيقة حياة أخرى، في السرد والمحتمل.

تقنيات سردية

قصص مجموعة «استثناء» تسعى اعتمادا على عين السارد، إلى تشخيص حالات ووقائع تحيا تشابكها في الظلال والخلجات والمسالك الاجتماعية. فكانت عصا السرد تخرج الأحداث المنفلتة من الكمون أو ظلام النظر إلى نور الحكاية، فتصف المشاهد بين ماض محفور في أخاديد الذات المتكلمة وواقع محاصر ومطارد. فكان الأفق محمولا في الأجساد التي تلتحم في الجسد الواحد المقهور والموجع بالضربات، وهو يخطو بين المفارقات الكبرى التي لا يد له فيها، لكنه هنا يحكي ليكون. تقول المجموعة في قصة بعنوان «مثل الحشر» ص٣٢:

«عصب رأسه المهروس من شدة الصداع. لم تنفع الأسبرين ولا الأسبرو مع هذا الغليان. تعب يفيض من الجسد النحيل ممزوجا بهلع وترقب. مل الانتظار من زمن سحيق. انتظار



كل شيء: المنحة، الانتقاء، النتائج، الشغل.. وأشياء منسية. مذ بصره مخترقا زجاج النافذة، الأشياء تجري إلى الخلف كالأشباح المتلاحقة...».

أغلب النصوص في هذه المجموعة القصصية لها صلة من قريب أو بعيد بحياة السارد، كشخصية عارفة تتقلب كحياة مكتظة بالمشاهد والمفارقات بين المدينة والقرية. وبقدر ما يختلفان في هندستهما، فإنهما يلتقيان في تلك الإطارات الحاضنة لحالات متوترة وملونة، تلون كل شيء عبر مصفاة الإحساس والتخيل. الشيء الذي أدى إلى حضور السير ذاتي، اللصيق أساسا بالسارد الذي يفرغ كوامنه وجيوب ذاكرته وشحنة إحساسه في هذا المحمول الهامشي الذي يخلق الرؤيا من أسفل، بمعنى ميخائيل باختين للحياة والوجود.

تشخيص وتصوير للمشاهد المكتظة، أدى إلى توسل الشكل الكثيف لبناء القصة. «إن

قصر القصة القصيرة يقتضي اقتصارها على جانب واحد من الحياة أو الشخصية من دون التفاصيل، مع مراعاة وحدة الانطباع وقوة الأثر؛ فقوتها تكمن بالأساس في جمعها بين القصر وقضايا الوجود العميقة، مواكبة في ذلك طبيعة عصرنا السريع»[١]، الشيء الذي يقتضي حضور ثنائيات لها تجلياتها: الضيق الاتساع، الزرقة العبوسة، الجفاف الاستثناء.. ولعل هذا الاستثناء، هو تلك اللحظة المنفلتة عن طاحونة اليومي والزمن الموحش؛ لحظة تنذر بحياة أخرى على صلة بالآمال والاحتمال ضمن المكان الذي يؤطر تلك المشاهد؛ وهو بذلك امتداد طبيعي لها، أي بإمكان المكان أن يعبّر عن الملامح العامة والخاصة للشخوص والأحـــداث. و«الـحـال أن الـمكـان لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر السرد، وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخـرى للسـرد كالشخصيات والأحـداث والـرؤيات السردية.. وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها، يجعل من العسير فهم الدور النصيّ الذي ينهض به الفضاء داخل السرد»[٢].

على سبيل الختم

مجموعة «استثناء» تركب بحر الحكاية في الكتابة السردية، لكن ليس بالمعنى التقليدي. فكانت القصص هنا، ذات مداخل تتمثل في اليومي للفئة المقهورة في المجتمع وزادها من استعمالات لغوية وتصورات وثقافة شعبية. وهو بذلك يشتغل على هذا المتن، ليعيد بناءه سرديا ضمن حكايا مقعّرة، بتوصيف مشهدي مشدود بخيط درامي، يتنامى كما عنف الحالة.

أمـا اللـغـة، فـلا تخلو مـن سخرية ونَفَسٍ شعريّ. فهذا الأخير يخيط المشاهد ويعمقها في الانزياح واللعب السردي. وسخرية سارية في التلافيف بتوصيف موغل ودهشة طافحة تزحزح الثابت عبر اللغة والمخيلة والـرؤى. فـ«في غمرة الحداثة وأسئلتها، وفـي خضم التبدلات المتلاحقة التي زعزعت اليقينيات والأنساق المنغلقة على أجوبتها، لم يعد الكاتب المبدع يكتب ليترجم مشاعر أو يؤكد حقائق أو يسند إيديولوجيا.. على العكس، يكتب من منطقة الارتياب والتساؤل والبحث عن الحقيقة المحفوفة بالالتباس والتعدد»[٣].

هنا تكون الكتابة بمثابة سؤال حياة ووجود على الرغم من تخلقها الجمالي. وهو المتحقق مع القاص والمبدع إبراهيم الحجري المتعدد الاهتمام بين القصة والشعر والبحث.. كل ذلك يخوّل له أن يغذي أي كتابة عنده، بلمسات في البناء المحيل بقوة الدلالة أو الإشارة أو الصياغة على تأملات فلسفية ونصوص غائبة أدبية وفكرية وشفوية..

ضمن هذا النسيج الحكائي، يتتبع الكاتب حالات الشخوص؛ لبناء ذاك الكل السردي الذي يعد فصلا لتلاحم ملحمي في الضيق بمعناه الواقعي والوجودي أيضا؛ نظرا لتعدد الأصوات الباحثة عن استثناء أو أفق آخر.

---

* كاتب وناقد من المغرب.

(١) محمد رمصيص، «أسئلة القصة القصيرة بالمغرب»، مطبعة طوب بريس، الرباط، ديسمبر ٢٠٠٧م، ص ٥.

(٢) حسن بحراوي، «بنية النص الروائي» عن المركز الثقافي العربي، سنة ١٩٩٠م، ص ٢٦.

(٣) محمد برادة، «فضاءات روائية»، منشورات وزارة الثقافة الرباط المغرب سنة ٢٠٠٣م، ص ٩.

قصتان

■ نورة عبدالله السفر*

إندوسكوبي روم

في الخارج.. حيث كل مريضٍ أسهم في الفراغ بعينين تضطجعان على جدار الترقب والوحدة. أمسك بكتابي الذي حدّق بي طويلاً ينتظرني. ترددتُ خوفاً على سمعتي من التلوّث بجريمة الانغماس في لذّة ذاتيّة بعيدة عن أناجيل الطب المقدّسة.

هنا، في غرفة المناظير.. حيث التعذيب اليومي بإدخال الأنابيب من الأعلى والأسفل والتفرج عبر الشاشات على دواخل المستلقين أمامنا. تُمسَك الأيدي وتُثبّت الأرجل. في غرفة باردة يتعرى فيها المريض من كرامته وأحياناً أشياء أخرى.. يدخلون ويخرجون. نحصيهم كعددٍ ونفتخر بإنجازاتنا. «لن يضيركم وعليكم سلامٌ من الله».. تطمئنهم الكلمات.. وأدوية النسيان تجري في عروقهم لتمّحي مُقَلنا وكلامنا وما مرّوا به من اغتصابٍ لفتحاتهم.

دخلَ آخر مريض. مسنٌ يُشكّ بتسرطن قولونه. ومن بين شفاهٍ قامرت بنداوتها للزمن فخسرتها، التهبت النكات وتكومت. أمسكت بقلبي رجفة هزّته، جرّدته من كتفين مثقلين، واطمأنّ لفضّ غزل السنين...

إنه هنا

نظرتُ إليها بينما أنا ممسكة بيدها أفحص النبض، تصوّرتها أمامي امرأةً «خفيفة الظلِّ» تلقي بنكاتها يمنة ويسرة، وتدكّ الأرضَ شامخة عند دخولها كل مجلس. ما هي الآن سوى ظلٍّ ملقى على حافّة الحياة، جسدٌ متقرّحٌ وعقلٌ خَرِف.

تجلس قبالتها عاملة آسيوية سمراء باسمة على الدوام، تطعمها وترعاها، وتترجم بلبلات تتدحرج على مسامعنا غير ذات معنى.

لم نلتفت يوماً لنفكرَ أن هذا المبنى الذي يتخلّل الموت بين ممراته، يقابل مبنانا الذي ندرس فيه ويضج بطاقات الفتوّة وأغصان غضّة لم تمسسها حروق العيش..

لم نعتذر لأنه مرّ ولم ننتبه إليه..

---

* قاصة من السعودية.



قصة: شارع الجزارين

■ طاهر الزهراني*

رجال، ونساء، وأطفال..

قطط متسكعة، وطيور في أقفاص معلقة..

روائح شهية لمأكولات شعبية..

روائح نفاذة لمحلات العطارة..

دكاكين تبيع اللحوم الحمراء، وعربيات تبيع الخضار..

مطاعم للكبدة البلدي والكوارع..

معاصر لقصب السكر..

متسولون ومتسولات..

أطفال يلعبون (الفرفيرا)..

نساء سمينات يبعن الدفوف، إحداهن تقرع بحرفيّة، وأخرى في الطرف المقابل (تتطرف) وتتمايل..

عم (مسعود) أمامه قدرٌ كبير مليء بالرؤوس المندية، وعلى الطاولة يفسخ بساطورة اللحم، ويرش عليه بعض الكمون، ثم يقدم لزبائنه ألذ (لحمة) رأس في البلد.

الجزار (حنفي) يحاول أن يعلق فخذ جمل عجوز ولكنه يفشل في وضعه في الخطاف؛ لأن فتاة سمراء تعرض مفاتنها على الشعب الـ(صنبلان)!

بينما عم (برعي) يتلفظ على المارة بألفاظ سوقية، وهو (يشيش) ويضحك..

شاب يطلق آهات ويقول:

- أح يا بلح!

لأن فتاة بخارية مرت بجواره!

بنغالي في أحد الأزقة يبيع أفلاماً جنسية!

محلات التنباك بجوار محلات بيع السمك المقلي!

إفريقي يبيع مستحضرات جنسية في قوارير صفراء، ويشير إلى المارة بإشارات القوّة، ويضغط بأسنانه العليا على شفته السفلى!

هندية تبيع الحناء والخلاخل، وبجوارها النساء السمينات اللاتي يبعن الدفوف، التي كانت تمايل شعرت بحاجة للتبول، ذهبت خلف إحدى السيارات القديمة، الأطفال الذين كانوا يلعبون الـ(فيرفيرا) لاحظوها وأخذوا يشاهدون المنظر من تحت السيارة، ويشاركهم قطٌ (عزّي) يقبع تحت الشكمان!

بشر يحتشدون في كل مكان..

جزارون يقطعون اللحم، وآخرون ينظرون للحم!

انتهت المرأة، ارتفعت عن الأرض..

أخذ الأطفال يضحكون، يضحكووون..

ويرفعون رؤوسهم إلى السماء.

---

* قاص من السعودية.



الظِّلُّ الهارِب

■ إيمان مرزوق*

في أولى ليالي أيلولَ الماطِرة.. في مدينةٍ لا قريبةٍ ولا بعيدة! وكعادتِه.. خرجَ الظّل الهاربُ ليتعمّدَ بماءِ السّماء.

كان ينتقلُ بسرعةٍ بينَ الشوارعِ والأزقّة، يراقصُ أضواءَ السياراتِ المُسرعة، وأعمدةِ الإنارة، ويشربُ مُنتشياً بذكرى انتصارٍ عمره ألف عام..

في أولى ليالي أيلولَ الماطِرة، قبلَ ألف عام! طوى الظّل ثوبهُ وهربَ من المدينة.

فبعدَ قرارِ تأجيرِ الظّلال، لم يعُد بمقدورِ الناس أن يدفعوا للفَقير، ليستظلوا بأيِّ ظلٍ كان!!

«إذا أردتَ أن تطأ أيَّ ظلالٍ في المدينة.. عليكَ أنْ تدفع!

وإلاّ فالشمس أولى بإشعالِ الجمر في جمجمتك!!».

ومنذُ ذلكَ اليوم، لم يعُد بإمكانِ أيِّ إنسانٍ أن يستظِلَّ بأيِّ شيءٍ كان.. حتى الفقير!

* كاتبة وقاصة من الأردن.

أمل

■ عبدالكريم محمد النملة*

بفؤادك
أورقت
ذكرى بواكير الصباح
ذكرى رغاب جائعات
عانقت وسن المساء
ذكرى دموع شفها
حزن لغروب
صامت..
ظامئ..
نحو انشقاق الغيم
في كبد المساء
ومضيت تخطو يائسا
في حلكة الليل القديم
تمضي
وفي عينيك
طيف خيالات عذاب
أومضت
في غاسق الروح
لك، وميض برق
في شبح السماء
تمضي ويلهج قلبك
بدعاء صبح ناعم
فيما مضى

بدعاء شمس أينعت
في شفة الصبح الوضيء
بسمة
عذبة
فيها شفاء الليل
من ضجّ المغيب
تمشي ويزجيك حنين
نحو هطول الشمس
في الغسق البعيد
في الفجر الجديد
متوسدا
في دربك الآتي
رغبات الأماني
الفاتنات..
الجائعات،
الظامئات،
لشعاع دفء أومض
في قاحل الليل البهيم
بين فجاج الصبح
ينحدر المساء
خائبا
من بين أهدابك
المسبلة

* شاعر من السعودية.

أصداء الذكرى



■ علي العلوي*

أَخَافُ عَلَيْكِ مِنْكِ
مِنَ الْمَرَايَا إِذْ تُكَسِّرُ وَجْهَكِ الْبَاكِي.
أَطِيرُ كَمَا صِغَارُ الطَّيْرِ
أُخْفِي لُقْمَةً فِي الْجَيْبِ
أَحْمِلُهَا إِلَيْكِ.
أَنَا الذِّكْرَى
وَأَنْتِ بِدَايَةُ الذِّكْرَى
كِلَانَا نُقْطَةٌ تَدْنُو وَتَعْلُو فِي سَدِيمِ الْأَفْلَاكِ

...

يَنْتَحِرُ الْكَلَامُ أَمَامَنَا
وَالدَّمْعُ يُلْهِمُنِي الْبُكَاءَ عَلَيْكِ
لَمْ أَغْضَبْ
وَلَمْ أَهْرُبْ
وَلَكِنَّ الْحَنِينَ أَمَاتَنِي فَهْمًا
وَبُعْدُكِ عَلَّنِي نَهَمًا
وَهَذَا الْوَجْدُ أَسْكَرَنِي بِشَهْدِ يَدَيْكِ

...

مُرْتَبِكٌ أَنَا
تَتَسَاقَطُ الْأَوْرَاقُ فِي جَفْنِي
أُفَتِّشُ فِي جُيُوبِي عَنْكِ
لَسْتِ هُنَا
وَلَسْتِ هُنَاكَ
فَالْأَبْوَابُ مُوصَدَةٌ
وَبَسْمَتُكِ اخْتَفَتْ كَالْبَرْقِ فِيكِ.

...

تَبَدَّلَتِ الدُّيُونُ
وَهَذِهِ الصُّوَرُ الْقَدِيمَةُ
مَا تَزَالُ تَحِنُّ فِي حُزْنٍ إِلَيْكِ.
تَجِيئِينَ اشْتِيَاقًا
ثُمَّ تَمْضِينَ احْتِرَاقًا.
وَأَصْدَاءُ الْمَكَانِ تَظَلُّ تَسْأَلُنِي
طَوَالَ الْوَقْتِ عَنْكِ.

نشيد شريد

أَنَا أَعْمَى
وَمَا بِيَدِي عَصَايَ
أَسِيرُ بِمُفْرَدِي
مَا لِي سِوَايَ
أُكَسِّرُ مَا تَبَقَّى
مِنْ مَرَايَا
لِأَعْكِسَ مِلَّةَ حُزْنِي
فِي هَوَايَ
وَأَرْسُمَ مَا تَجَلَّى
فِي الْمَرَايَا
لِأَنْظُرَ فِيَّ
فِي مَرْمَى أَنَايَ
أَنَا أَعْمَى
يُطَوِّقُنِي أَسَايَ
وَيَأْخُذُنِي السُّكُونُ
إِلَى عَمَايَ
فَأَمْكُثُ
فِي لَظَى صَمْتِي طَوِيلًا
وَأَصْمُتُ
كُلَّمَا نَطَقَتْ يَدَايَ
كَأَنِّي نَغْمَةٌ
فِي قَعْرِ كَأْسٍ
كَأَنِّي دَفْقَةٌ
فِي لَحْنِ نَايَ

* شاعر من المغرب.



خريرُ الحنين

■ الطاهر لكنيزي*

أسبِلْ ذيولَ البسمةِ الوَطفاءِ ... والجِمْ خيولَ الغضبةِ الحمراءِ

لملِمْ عنادَك إنّ قلبي قاربٌ ... يستفُّ تربةَ الوحدةِ الدَّهماءِ

وافسحْ لشمسِ الودِّ تمشي الخَيْزَلى ... في قلبِك المشنوقِ بالأنواءِ

كي يرتُقَ الأفراحَ خيطُ غزيلِها ... ويغورُ زَوْقُ الظلمةِ الظلماءِ

ويسيلُ وجدُك جدولاً مترقرقاً ... ينسابُ بين مشاتلِ الأحناءِ

ويتمتمُ البوحُ البهيُّ لقاءَنا ... ونذوبُ في همساتِنا العبْطاءِ

ونعانقُ الشوقَ القديمَ حديثَه ... فتنزُّ وشوشةٌ من الأحشاءِ

هلاّ هدَدْتَ حصونَ الصدِّ جُملةً ... ومددْتَ جسرَ الصراحةِ النجلاءِ

ونَبيتُ للأحلامِ عُشّاً باذخاً ... لتغرِّدَ النجوى بدغلِ خوافي

جرِّدْ ظلالَ الشكِّ من أفيائِها ... لتُرى غَضارةُ روحيَ البيضاءِ

كم سُقتُ عيسَ صبابتي ملتاعةً ... لمنابعِ الأحلامِ والأهواءِ

فتدلّهتْ والهجرُ أدمى شوقَها ... لما نضبتْ كمائنُ الشحناءِ

وخبلتُ حين شربتُ كاساتِ النوى ... ممدوقةً بضرامِك الزرقاءِ

وتركتُ عقلي بين كثبانِ الأسى ... يتلمّسُ الأسماءَ في الأشياءِ

ويسائلُ القلبَ المُعلّقَ نبضَه ... في حيرةٍ عن واحتي الغنّاءِ

شاختْ حساسينُ الهوى فينا وما ... شاخَ الحنينُ بصَبوتي الهيماءِ

نزفتْ على الماضي لحونَ مناحةٍ ... كمخارمِ النايات بالصحراءِ

ألقتْ حمائمُنا على أقمارِه ... أسجاعَ سحَّتْ من غميسِ الداءِ

فَصَلِ الفؤادَ بكلمةٍ مطروزةٍ ... بالودِّ لا بالضحكةِ الشهباءِ

كي تَوْرِقَ الكلماتُ مثلَ فسيلةٍ ... أو وردةٍ في روحِك الجرداءِ

ويصوغَ منه طنينَه نحلُ الجوى ... ويصبَّه في روحِك الخرساءِ

فالنهرُ رغمَ السدِّ يطفرُ مدُّهُ ... ليبوحَ بالأسرارِ للحصباءِ

والوردُ يطرحُ للنسائمِ عطرَه ... لتدسَّها في خاطرِ العذراءِ

والبحرُ يدفنُ في الرمالِ هديرَه ... ليصبغَ موجُه للخريرِ النائي

هذي حبالُ حُشاشتي ممدودةٌ ... فلاشرْ غسيلَ شجونِك الخضراءِ ..

---

* شاعر من المغرب.

نصوص شعرية



■ محمد خضر*

عن الاعتقادات الخاطئة

قالت إنها تحبه..
قالت إنها حاولت الانتحار لأجله مرتين
قالت إنها انتحلت شخصية موصلة طلبات غداء من مطعم شهير حتى يتصادفا،
وتحقق ذلك فعلاً وأعاد لها الباقي بين يديها وهو يخمن: (أين رأيت هذه الفتاة؟)
قالت إن الحنين ينثرها مثل ريح تجرف قش أسفل شجرة..
بينما كان شخص ما أمامها..
يفرك يديه في كناية جديدة عن تحطم القلب..

كفُّ كالمأوى..

على الكتف ظلت شامتها جائرة لسنوات..
فكرت ذات مرة بأنها قد تكون مضرّة مع مرور الوقت..
قالت شيئاً خافتاً يشبه كلام الكهنة حول الأقدار
وتذكرت شامة مارلين مونرو
كيف كانت الحياة صعبة مع الريبة
والاحتياط ونصائح الأطباء
بعد مدة تحسنت الأوضاع..
كان ثمة كفّ حنونة تقدر الأشياء الثمينة!

بعد قراءة أبراج ماغي فرح

أخاف يا ماغي فرح،
ألا يستدل الغريب على المأوى،
ولا قوافل الحنين على غبر العتمة،
ولا القناديل المضاءة على تشققات الألم،
أخاف أن يتسكع القدر على مقربة من القصيدة،
ويبني المجهول كوخا في كل استشراف،
ويسألني عابر كيف حالك بصدق وحزم؟!
أخاف أن يتواطأ البرج مع اللغة،
ويغرقان في صميم البحر..
أن تطارحني الصحراء سرابها،
فأفشل في صياغة عبارة عن الأمل

عرافٌ لخطوتها..

أعرفها من غيمة في القرى البعيدة..
من تنويه صغير للعائدين من السفر..
من أغنية عشوائية على الراديو المبرمج..
من ذعر الحمامات في فتحة التكييف..
ومن قبلة طويلة في فلم ممل..

شاشة

كل رصيدي من القلق..
يستهلك في شاشة الرحلات التي أقلعت..
في وميضها الفائت كغصة بين عاشقين..

ترصد

قصيدة فاتنة ملقاةٌ في طريقي منذ أيام..
تتحرك على الأوراق مثل ورد في عاصفة..
كلما حاولت أن أسلك طريقا آخر..
تحضنني جيداً بأدوات التعبير..
تُطبق عليّ مع سبق الإصرار..
فأدخل فيها مثل طبّة في كتاب ضخم

---

* شاعر من السعودية.

الشاعر عبدالله السفر

■ حاوره/ عمر بوقاسم*

عبدالله السفر.. شاعر يعي بعلاقته مع ذاته الإبداعية، التي ترافقه في كل الاتجاهات، ومَن يجالسه يتنبه لعمق ثقافته وحرصه على الاستمرار والبحث عن الجديد.. وهذا ما نلمسه من إجابته على سؤالي عن حضوره كناقد مرة، وشاعر مرة أخرى؛ إذ قال: «أعتقدُ أنّ غالبَ ما أقدّمه من قراءات في الأعمال القصصية والروائية والشعرية هو استمرار لـ «الذات الإبداعيّة» التي تكتبُ النصوص. ما يمسّني في تلك الأعمال من جمرات تحدثُ أثرها في روحي، وتستقرُّ خلاصةً من النشوة والدهشة والانبهار، أحاول التّعبيرَ عنها أو إعادة إنتاجها في صورة «نصٍّ» مرجعيّتُهُ ذلك العمل الإبداعي. أسجّل استمتاعي، ولكَ أن تسمّيها شهادة إعجاب مصحوبة بماء النص المقروء ومتداخلة معه».. هذه إضاءة لحوار قد يقرّب القارئ لعالم شاعرنا..

«الأعمال الكاملة» فقدت سحرها..!

● عبدالله السفر من الأسماء التي تقودنا إلى حركة قصيدة النثر السعودية؛ فقد أهدى الساحة الشعرية العديد من الإصدارات بين مجموعات شعرية وكتب نقد «يفتح النافذة ويرحل ١٩٩٥م»، «جنازة الغريب ٢٠٠٧م»، «يصرون على البحر ٢٠٠٧م»، «اصطفاء الهواء ٢٠١٠م»»، «حفرة الصحراء وسياج المدينة ٢٠١٠م»، «يطيش بين يديه الاسم ٢٠١١م»، «دليل العائدين إلى الوحشة ٢٠١٢م»، «يذهبون

في الجلطة ٢٠١٣م»، «وسم الأيام ٢٠١٣م»، هل بهذه الإصدارات أكملت مشروعك مع الكلمة؟

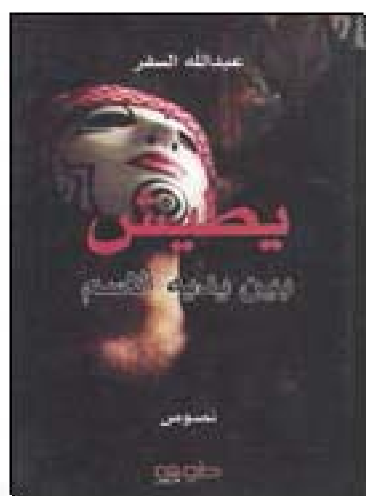
■ لا أحد يقول باكتمال مشروعه الكتابي؛ لأنه أصدر مجموعةً من الأعمال خلال عقد أو عقدين أو ثلاثة عقود وحتّى أكثر من ذلك، لعلّك تذكر «الأعمال الكاملة» التي حملتْ لواءها دار العودة في سبعينيّات القرن الماضي، وقرأنا تحت هذه المظلّة نجوم الساحة الشعرية في لبنان والعراق ومصر وسوريا والسعودية؛ لكنّ هذه التسمية «الأعمال الكاملة» فقدتْ سحرَها أو فاعليّتها، أو بالأحرى مطابقتها لأصل غير موجود.. ألا وهو «الكمال»، ولو في حدِّه الأدنى «الإبلاغ». ومع ظلال التوصيف الكمّي لـ «الكاملة»، يكاد استخدام هذا العنوان يختفي ليحلّ مكانه «الأعمال الشعريّة»، مثلاً، لتحيل على إنجاز إبداعي؛ محصوراً في فترة زمنيّة معيّنة بلا استدعاء قفلٍ للتجربة يعلنُ تماميّتها. ذلك أن مشروع أيّ كاتب بصرف النظر عن هويّته الإبداعيّة والفكريّة يظلّ مفتوحاً بأكثر من معنى، دون أن نضع في الحسبان مَن يقع في الاجترارية والعودة إلى تجربته يستنسخها، كأنما يقلّد نفسه ويرفع إشارة الحياة والبقاء على قيد الكتابة. ما أعنيه بالانفتاح؛ أنّ ثمّة عوالم من الكتابة تنتظر من الكاتب أن يذهب إليها؛ مجرّباً ومكتشفاً. يختبر الحذف والإضافة، ويمتحن مناطق لم يسلكها مِن قبل. وربما كانت كتابته في المرحلة الماضية اختماراً للوصول إلى «عروق الذهب»؛ خلاصة التجربة ورحيق العمر. هذا فيما يخصّ الكاتب فقط.. أما فيما يخصّ القارئ؛ فإن سيرورة التلقّي تظلّ بلا اكتمال أبداً. كتابُ الرمل الذي فتحه بورخيس في نصّه المشهور ولا تنفد صفحاته. كذلك أمر القارئ مع الكتاب وكاتبه. في كل عصر من العصور تجد عودةً واجتراحاً لآفاق المكتوب وسبراً مختلفاً يستجيب لكل عصر وتحوّلاته. بمعنى القابليّة للقراءة من جديد واكتشاف بقعة لم يصلْها الضوء وبقيتْ مكنونة ومكنوزة حتّى وصلتْ إلى قارئها؛ يكتشف ويفضّ «رسالةً» لم تبلَ رغم اختلاف الأيدي التي تبادلت هذه «الرسالة» وثبات سطورها. مع الكتابة، رهانُ الكاتب دائماً اللا اكتمال...

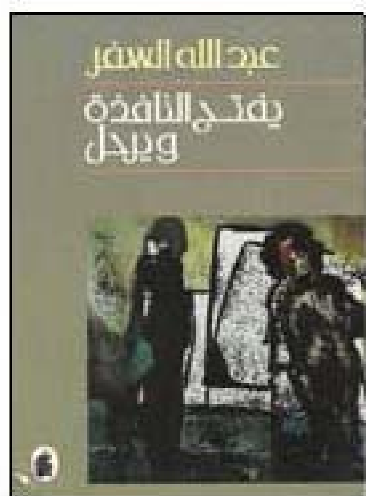
> **ما أقدّمه من قراءات في الأعمال القصصية والروائية والشعرية هو استمرار لـ «الذات الإبداعيّة» التي تكتبُ النصوص.**
>
> **ثمّة عوالم من الكتابة تنتظر من الكاتب أن يذهب إليها؛ مجرّباً ومكتشفاً.. يختبر الحذف والإضافة ويمتحن مناطق لم يسلكها مِن قبل.**
>
> **أحسبُ أن هناك «ساحة» واحدة للشعر العربي بوصفها ميداناً للجمال بصرف النظر عن هويّة الشاعر وانتمائه الجغرافي.**

اندفاعاً محموماً نحو الكتابة الروائية..

● من الواضح توجّه الكثير من الشعراء في العالم العربي إلى كتابة الرواية، والكتابة السردية في السنوات الأخيرة ما المبررات خلف هذا التوجه، وهل هي ظاهرة صحية أم..؟

■ لا بُدّ من الإقرار أنّ هناك اندفاعاً محموماً نحو الكتابة الروائية وإنتاجها بغزارة، بطريقة تثير الانتباه والتساؤل؛ إذ نجد أنّ بعض المناطق التي عُدت في وقتٍ ما «متصحّرة روائياً» حضرت بقوّة في المشهد الروائي - إنّ في جهة الإنتاج أو في جهة التقدّم - إلى اعتلاء منصّة الجوائز. لا يهمّ الآن قراءة هذه الظاهرة تحت أي لافتة نقديّة تحيل بـ «عصر الرواية»، أو التحولات المجتمعية الهائلة، ومعها السياسية والاقتصادية في العقديْن الأخيرين. أو الصدى المباشر لانفتاح الفضاء الإنساني والمعرفي بشكلٍ غير مسبوق، أحدثَ تصدّعاً في هيمنة الرقيب في وجهه الخارجي الذي يمثّل السلطة، أو في وجهه الداخلي الذي يجسّد الامتثال لما هو من الأعراف والتقاليد والمسكوت عنه الذي يحسن الابتعاد عنه، غيرَ أن الصوت الجديد بنداء الحريّة اكتسحَ الرقيب بوجهيه الداخلي والخارجي، وشاهدنا الأعمال الروائية تترى، وتطغى على ما سواها من منتج إبداعي أو غيره. هنا يتدخّل الحسُّ الاستهلاكي والتسويقي في تضخيم الظاهرة وإبلاغها مدىً من المجانيّة والجرأة دون رفّة جفن، وقبلَ ذلك من دون أدوات؛ فاختلط الحابل بالنابل، حتى قرأنا أعمالاً روائية؛ كل صفحاتها عامرةٌ بالأخطاء والخطايا؛ فنيّةً ولغويّة. وبالنسبة إلى انخراط بعض الشعراء في الكتابة الروائية، إذا ما أعرضْنا عن ركوب الموجة والتقليد والاستجابة إلى رغوة التسويق، فإن ذلك يصدر عن تاريخ في الكتابة، وخبرة في أساليبها وطرقها،







بل الريادة في نوع منها، وأعني الريادة بمؤداها الفني.. مثل الرواية الفانتاستيكية التي برعَ فيها الشاعر الكردي السوري سليم بركات؛ إذ ارتادَ مساحاتٍ بِكْرا في هذا المجال، تعضده مخيّلة عامرةٌ تعكس روحَ المكان وشخصياته وحيواناته وأشياءه. وثمّة شعراء آخرون ذهبوا إلى الرواية؛ لأن نصوصهم الشعرية ابتداءً لا تخضع للتوصيف أو القالب المعروف للشعر. ثمّة إمكاناتٌ خارج الحقل الشعري تسرّبت إلى تلك النصوص قادمةً من حقولٍ أخرى؛ الأمر الذي لا نتعجّبُ معه أن أخذوا طريقهم إلى الرواية مثل عبّاس بيضون، أو أمجد ناصر، أو حسن نجمي، أو عبدالله ثابت، أو علاء خالد. وشخصياً، عندما أطالع عملاً روائيًا لا تشغلني هويّة الكاتب و«صحيفة سوابقه» الكتابيّة. ما يهمّني هو «المكتوب» نفسه. هل يملك المقوّمات الفنيّة للمكوث والبقاء. هل يتوافر على إمكانيّة الصوغ وتحويل الحدث الخام ومتن الحكاية إلى مبنى روائي حقيقي. هذا الرهان الذي نحتكم إليه.

> **في كل عصر من العصور تجد عودةً واجتراحاً لآفاق المكتوب، وسبراً مختلفاً يستجيب لكل عصر وتحولاته.**
>
> **لا بُدّ من الإقرار أنّ هناك اندفاعاً محموماً نحو الكتابة الروائية وإنتاجها بغزارة بطريقة تثير الانتباه والتساؤل!!**
>
> **النقد والإبداع في السعودية، وفي أيّ مكانٍ آخر، ليسا في حلبة صراعٍ أو مضمارٍ للجري ونحن نحمل «الصافرة»....!**

المساحة فرضت نفسها!!

● كتاب «يصعدون على البحر» الصادر عام ٢٠٠٧م، في الجزائر والذي شاركك كتابته الشاعر محمد الحرز وهو بمثابة انطولوجيا لشعراء السعودية.. واجه الكثير من النقد، واتهم بأنه لم يكن موضوعيا، ماذا تقول في هذا الاتجاه؟

■ يُنسَب إلى العماد الأصفهاني قولُهُ «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه، إلا قال في غده لو



غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيد كذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل. فالثُغرة تلاحق أي عمل منشور سواء من صاحبه بحرصه على مقاربة أفضل الصور التي يريدها لعمله، أم من الآخرين الذين يلاحظون النقص ويسجلونه على الكاتب. وهذا المنطق لا تخرج عنه أنطولوجية «يصرُّون على البحر» التي جمعتْ نحو أربعين شاعراً وشاعرة من السعوديّة في مجلّد مؤلّف من (٢٥٠) صفحة فقط. فالمساحة المحددة لهذه الأنطولوجية فرضتْ نفسَها في العدد المحدود الذي لا يمكن تجاوزه تبعاً لرؤية جهة الإشراف، وزارة الثقافة في الجزائر الذين تفضلوا مشكورين بتبني إخراج سلسلة أنطولوجيات عربيّة ضمن احتفائيّة «الجزائر عاصمة الثقافة العربية للعام ٢٠٠٧م». وعليه كان الحرج الشديد في الاختيار والفرز والانتقاء، ولم يكن من مخرج سوى اللجوء لـ «الذائقة الشخصية» التي تشربتْ حداثة الثمانينيات في ساحتنا المحليّة وما بعدها، التي أحبُّ أن أطلق عليها «القصيدة الجديدة»، من دون إغفال الرموز التأسيسية لهذه الحركة الشعريّة. وبشكلٍ عام، فإنني أتفهّم وأقدِّر النقد الذي واجهه الكتاب، وأعتذر عن السهو الذي طالَ بعض الأسماء، وهي بالمناسبة قليلة، وهذا لا يقلّل من حجم اعتذاري، والتي وجدتْ فرصة الإنصاف من أنطولوجية «أصوات شعرية مختارات من الشعر السعودي» الصادرة عن وزارة الثقافة والإعلام «قبل نحو عامين ١٤٣٢هـ»، بإشراف وتنسيق الصديقين العزيزين يوسف المحيميد وسعود السويدا.

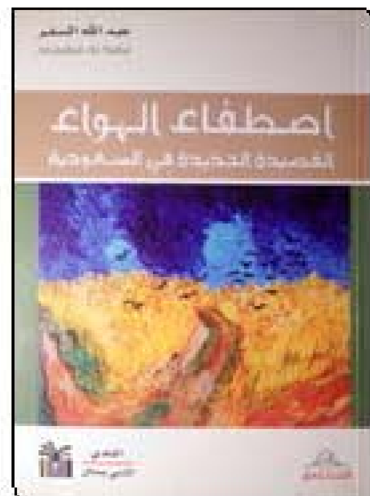


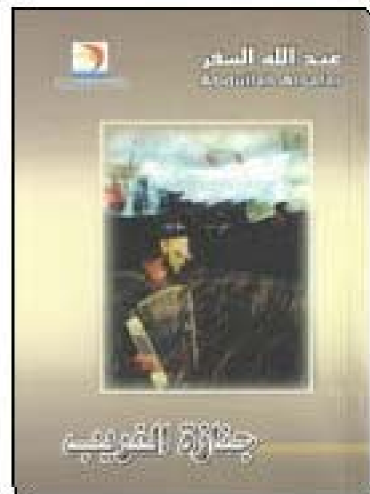


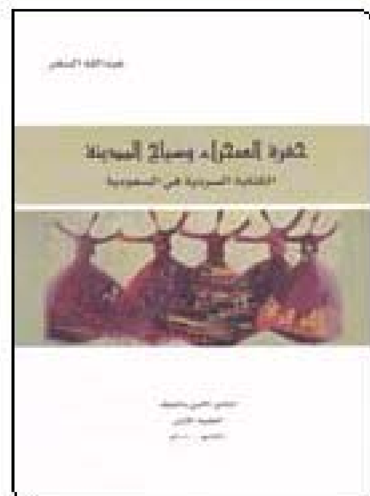


- **تناولت عددا من التجارب الشعرية السعودية بقراءات نقدية، وكذلك حظيت بعض التجارب الشعرية العربية بهذا الاهتمام منك، ما تقييمك للساحة الشعرية السعودية مقارنة بالساحات العربية؟**

■ بعد انهيار مقولة «المراكز والأطراف»، لا يكون ثمّة مجالٌ للحديث عن «ساحات» في صيغة جمع تحمل تراتب ومنازل فيها الأعلى والأدنى؛ طبقاً لجغرافيا وتاريخ. أحسبُ أن هناك «ساحة» واحدة للشعر العربي.. بوصفها ميداناً للجمال، بصرف النظر عن هويّة الشاعر وانتمائه الجغرافي. ومن هذا المنطلق، أنظرُ إلى الشعر المكتوب في السعوديّة، ولا يحضر في البال حسُّ المقارنة إنّ بالافتخار أو «التشاوف»، أو من باب العقدة القديمة عن أطراف تريد الالتحاق بمركزٍ من المراكز في بيروت أو دمشق أو بغداد أو القاهرة، بإنتاج نسخة تحاول مضاهاة الأصل في العواصم المذكورة. لدينا أسماء شعرية حاضرة بقوّة في الكتابة الشعرية الجديدة، حتّى لو كانت الأضواء الموجّهة إلى تجربتها شحيحة أو معدومة، لكنها موجودة بثقلٍ ونفاذ في هواء الشعريّة العربية بما لا نحتاج معه إلى مقارنة. هي أسماء حاضرة بذاتها، بأوراقها المعتمدة من صناعة الجمال وإتقانه، مثل إبراهيم الحسين، وحمد الفقيه، وزياد السالم، وأحمد الملا، وعلي العمري، وأحمد العلي، وعبدالعزيز الحميد، وعبدالله حمدان الناصر، وماجد الثبيتي..







الإبداع صدى وقتيًا للحدث ومباشر له..!

● **في ظل التغيّرات السياسية والاقتصادية التي يشهدها العالم العربي، ما الأثر الذي قد تتركه هذه التغيرات على شكل ومضمون الخطاب الإبداعي؟**

■ التغيرات العاصفة بالعالم العربي الذي بدأ مع ثورة الياسمين التونسية في أواخر عام ١٩١٠م، وما تزال هذه الدورة مشتعلة ولم تصل إلى نهايتها، بل إن بعض هذه الثورات تراجع نفسها وتصحّح مسارها بعد أن ركب موجته فصيلٌ سياسي يبتغي احتكار

الفضاء السياسي والاجتماعي والثقافي؛ ما يعني أن الاستقرار لم تبلغه تلك التغيرات. أما الجانب الآخر فهو ما يخصّ الإبداع الذي يحتاج مسافة زمنية ومساحة للاختمار والإنضاج والاستواء، إذ أنّ اعتبار الإبداع صدى وقتيّا للحدث ومباشر له؛ ليس صحيحاً ويبدو ضاراً بالإبداع نفسه. ولنا مثالان. نجيب محفوظ، مثالنا الأول، كتب في جزء من ثلاثيته عن مناخ ثورة الزعيم السياسي سعد زغلول «١٩١٩م» في خمسينيّات القرن الماضي؛ فكانت هذه الثلاثيّة سجلاً «فنيّاً» ليس للثورة نفسها.. ولكن لمجتمعٍ بالكامل. والمثال الثاني الروائي الليبي إبراهيم الكوني الذي تعجّل كتابة الثورة في بلده ليبيا ليلحق الحدثَ، لكنه لم يدرك الرواية ولا فنيّتها ولا نجاحها في كتابه «فرسان الأحلام القتيلة» (٢٠١٢م)، رغم الرصيد الجمالي الذي يتكّئ عليه الكوني، والتجربة المديدة في الكتابة الروائيّة. وأخشى أن ما يُكتَب الآن يأخذنا فقط إلى «الحدث» وانفعاليّته، ولا يأخذنا إلى «الرواية».

الذات الإبداعية

● **في حوار لي مع محمد الحرز طرحت عليه سؤالا عن حضوره كناقد مرة وكمبدع «شاعر» مرة أخرى، وهل ثمة علاقة جدلية بين النقد والإبداع.. رفض فكرة وجود أي تنافر أو تناقض بين الاتجاهين وقال «بكل بساطة في حالتي هو تنوّع تعبير الذات بأشكال كتابية مختلفة لم يكن يكفيها نوع واحد تدلف إليه في التعبير، بسبب تعقّد الحياة من جهة، وبسبب حاجة الإنسان في التعبير عن هذا التعقد بطرق مختلفة». عبدالله السفر أيضا يحضر كناقد مرة وكشاعر مرة أخرى، هل تتفق مع الحرز أم لك رأي آخر؟**

■ أعتقدُ أنّ غالبَ ما أقدّمه من قراءات في الأعمال القصصية والروائية والشعرية هو استمرار لـ «الذات الإبداعيّة» التي تكتبُ النصوص. ما يمسّني في تلك الأعمال من جمرات تحدِثُ أثرها في روحي وتستقرُّ خلاصةً من النشوة والدهشة والانبهار، أحاول التعبير عنها أو إعادة إنتاجها في صورة «نصٍّ» مرجعيّتُهُ ذلك العمل الإبداعي. أسجّل استمتاعي، ولكَ أن تسمّيها شهادة إعجاب مصحوبة بماء النص المقروء ومتداخلة معه. هو نوعٌ من التعالق الإبداعي أطلقَ عليه الصديق سعود السويدا «النقد الإيروتيكي»، نقلاً عن سوزان سونتاج، بمعنى مجاسدة النص والتداخل معه ليس على نحوٍ معرفي بقدر ما هو على نحوٍ جماليٍّ صِرْف؛ يتلمّس المتعة ويعبّر عنها، ما وسعته المحاولة والكلمات، وفي الوقت نفسه، يدعو القارئَ إلى مشاركته واختبار تلك المتعة.

يبحثون في دفاتر التراث عن هذا الأب..!!

● **«قصيدة النثر ترتبط بالذائقة الأجنبية والتراث الأجنبي، وليست نابعة من التراث العربي»، هذه العبارة تحمل تصور البعض. عبدالله السفر ماذا يقول؟**

■ لا أجد غرابةً في هذا التصوّر الذي يعكس

ذهنيّة مشغولة بالأصول (وهو شاغلٌ عربيٌّ بامتياز)، ولا تقنع إلا بما هو منتسِبٌ إلى الجذور وملتحمٌ بها عنواناً للأصالة والتحدّر من «أبٍ» معروف. هذا الهاجس أو الاتهام جعلَ آخرين يبحثون في دفاتر التراث عن هذا الأب، وربما عثروا عليه عند التوحيدي والنّفري... لعلّ هاجس الاتهام يخفّف من غلوائه، ويطمئن أنّ عشبة قصيدة النثر ليست نبتاً شيطانيّاً ولا طارئاً على خارطة الكتابة العربية، وذلك بقصد نيْل التقبّل والاعتراف. لنتواضعْ ونعترف أنّ «نقاء العِرق» وهمٌ من الأوهام. نجد من يشغلُهُ هذا الوهم إلى درجة عدم الانتباه إلى أنّ «الإنسان» قبل الإبداع هو حاصل تداخل حضاري وتنافذ بشري عبر التاريخ والجغرافيا والذاكرة. إنّه تلاقح وامتزاج لا يسلم أحدٌ منه. ومن هذه الوجهة، لا يهمّ الضفة التي أقبلَ منها هذا الشكل أو ذاك بقدر أهميّة البحث عن نجاح هذا اللون من الكتابة وتحقّقه فنيّاً.

لستُ حريصاً

● **كيف ترى قراءة النقاد لتجربتك؟**

■ بإخلاصٍ، لستُ حريصاً على الوقوف عند هذه المسألة. يكفيني كما قال الصديق قاسم حدّاد «تسعة أصدقاء وحبيبة واحدة».

.. ليسا في حلبة صراع

● **«النقد في السعودية تفوّق على النص الإبداعي» هل تتفق مع هذه العبارة أم..؟**

■ ربما لا أتفّق معك في هذا التوصيف. النقد والإبداع في السعودية، وفي أيّ مكانٍ آخر، ليسا في حلبة صراعٍ أو مضمارٍ للجري ونحن نحمل «الصفّارة» لنحدّد مَن أحرزَ قصب السبق، وحقّقَ جدارة حمل «كأس التفوّق». لكل كاتب من هؤلاء؛ مبدعاً وناقداً، شواغله المعرفيّة والجماليّة التي يعملُ عليها، ويحفر لاستجلاء المكامن واستقصاء الينابيع واستكناه مواطن النظر ومواقع التجربة الإنسانيّة، يتماسّ كل واحدٌ منهما بعدّته الخاصة، والناتج يتلقّاه القارئ بشكلٍ فرديّ، ويتعامل معه، ويسجّل رأيه أو انطباعه لصالح العمل، أو ضدّه، أو ينزلق من ذاكرته بحيادٍ أو إلى النسيان.

بيتي الإبداعي هو الفيسبوك..

● **ما المواقع التي تزورها أنت على الشبكة العنكبوتية؟**

■ هناك مواقع أزورها بانتظام، وأخرى على تباعد. إضافة إلى مواقع بعض الصحف العربية التي تمنح الثقافة فضاءً عريضاً من النشر والمتابعة، إلى جانب بعض المدوّنات المهتمة بالنصوص المترجمة، لكنّي بشكل رئيس أجد «بيتي الإبداعي» في المتابعة هو الفيسبوك الذي وفّرَ لي كمّاً هائلاً من التجارب المختلفة في مروحة الإبداع الفائتة. هناك أعثر على الأصدقاء وعلى الذخائر.

● **وهل لنا أن نتعرف على مكتبتك؟**

■ مجموعة من الكتب النّضرة، ولابتوب، وآيباد، وعزلة شاسعة..



استطلاع عن أزمة الشعر العربي

■ إعداد سعيد بوكرامي*

نقرأ الإبداعات الشعرية العالمية بلغتها الأصلية أو بلغات وسيطة، فنجد أننا أمام قارات شعرية باهرة. تجارب حقيقية تحفر اسمها عميقاً في ديوان الخالدين.

في عصرنا العربي الحالي، نكاد لا نجد شعراً. أين الشعر العربي المماثل؟

أيها الشاعر هل أنت راضٍ عن لغتك التي تكتب بها؟

هل نحتاج إلى مراجعة ذاتية وجمالية، لتعيد استنبات غابات شعرية جديدة في بستان الإبداع الإنساني الخالد؟

من أين تستمد طاقتك للخلق والإبداع الشعري؟ أمن التراث، أم من لغة العصر، أم من طقوس الحياة؟

ألا ترى أن أزمة الشعر العربي الحالي هي معضلة تجديد لغوي وتثوير شعري وتفكير رؤيوي؟

هذه أسئلة، من بين أسئلة كثيرة تفتح أفق الحوار وتحفز تداعياته.

ما أقل النصوص الرائعة!

فتحي عبدالسميع / شاعر من مصر

ننظر للمشهد الشعري العربي، فنجد كمّاً هائلاً من الشعراء، ولا نجد مردودا شعريا يوازي هذا الكم، أو يتجانس معه، فما أقل النصوص الرائعة التي تحمل لمسات إبداعية تلفت انتباهنا، وتجبرنا على التوقّف أمامها، والإقبال عليها ببهجة! وما أندر الشعراء الذين يقنعونك بأنهم شعراء بمعنى الكلمة. وتلك الندرة قياسا بكمّ الشعراء تجعلنا نتحدث بشجاعة أن العالم العربي يأوي أكبر قدر من أدعياء الشعر في العالم!

إن الأساس في حركة الشاعر هو

السعي لتقديم نصوص جديدة، مدهشة وثرية، نصوص تضيف ولا تكرر، نصوص تمتح من النبع الخلاق الموجود في أعماق البشر عموما، والشعراء بشكل خاص؛ لأن طبيعة عملهم تفرض عليهم الانفتاح على العالم: الداخلي والخارجي؛ والانشغال الدائم بالرصد والإصغاء والتأمل، وامتلاك المهارات التي تمكّنهم من اصطياد لحظات الفيض الباطني، والسيطرة على اللغة بهدف استغلال طاقاتها وترويض إيحاءاتها، والتمكّن في النهاية من تقديم عمل إبداعي يفاجئ المتلقي ويدهشه، ويثري نظرته للعالم، وإحساسه بالوجود.

إن كل شاعر جاد يمتلك القدرة على إبداع نصوص فاتنة، لها طعمها المميز، وبصمتها الخاصة، وتستحق الحضور في ذاكرة الفن، فكما يشترك مع سواه في سمات كثيرة، يتسم أيضا بسمات فريدة، وحياة فريدة تمتلئ بالتفاصيل، والصور، والرموز، أو الأشياء التي تصلح لأن تكون رموزا خاصة تفجر طاقاته، وتتبلور من خلالها نظرته للعالم.

وفي تقديري، إن أهم ما يحتاج إليه الشاعر هو الاشتباك مع عالمه الذي يعيشه بتفاصيله، ومفرداته، وأن يكون هذا الاشتباك مدخله الأساس لاشتباك آخر مع اللغة، ومع الكتابة بوصفها ممارسة خلاقة في حد ذاتها، لا مجال فيها للوصفات الجاهزة، والقواعد المقررة سلفا، فأمر الشعر ليس محسوما، الشعر أكبر من كل تعريف به، وبحاجة إلى اكتشاف دائم، تماما كالإنسان، وإلا فلا حاجة لنا للإبداع أصلا، ولا مجال لانتظار الجديد، والمفاجئ، والمدهش، والمثير.

الشعر هو الرفيق الأكثر إخلاصا للإنسان.. ذلك الكائن العجيب والملغز، والذي لن يتوقف أبداً عن قراءة نفسه، والحوار مع مكوناتها



شاكر عبدالحميد

بمعلومها ومجهولها.

إنني لا أؤمن بوجود لغة تساعد الشاعر وأخرى تعرقله، أؤمن بوجود شاعر حقيقي ومجتهد، يعي طبيعة الشعر والإبداع، ويخلص للكتابة بطموح لا حدود له، وآخر زائف لا يستوعب طبيعة الشعر بالقدر المناسب، فيعرقل الشاعر الذي بين جنبيه، بوعيه القاصر، وإخلاصه الضعيف.

والأمر نفسه ينطبق على المكان، فالعبرة ببناء الشاعر، وما إذا كان الشاعر يتحرك في مسار حقيقي أم زائف، والشاعر الحقيقي يستطيع أن يبدع ولو كان مقيما في قرية نائية، أو حتى زنزانة. وفي المقابل يعجز الشاعر الزائف عن الإبداع الحقيقي مهما كان المكان الذي يقيم فيه.

المشكلة في عالمنا العربي تتعلق ببناء الشاعر، فالصدفة وحدها تضعه على الطريق الصحيح، وغالبية الشعراء يقضون حياتهم في المسار الخطأ، يقلدون ولا يبدعون، ينسخون ولا يبتكرون، يقمعون الشاعر الذي يمتلكونه، بدلا من تفجير طاقاته الخلاقة.

إن المناخ العام في عالمنا العربي مناوئ للشاعر الحقيقي، وأغلب الشعراء يُقتلون قبل

ميلادهم، يُقتلون من قِبل الجهل بطبيعة الشعر ودوره، وقيمته على المستوى العام، أو من قبل ربط الشعر بمفهومات يائسة لا تطمح إلى ما هو أكثر من استنساخ مشوّه لتجارب قديمة، مفهومات لا تمنح للشاعر من الحرية ما منحته المجتمعات البدائية القديمة لشعرائها، مفهومات حنطت الشعر في توابيت وراحت تقدسها، أو تلوكها بلا حوار أو مُساءلة، مفهومات يتشبث بها كهنة في المدارس والجامعات، أو المنابر الثقافية، أو المحافل الأدبية، كهنة يعملون بوعي ومن دون وعي على تثبيت السائد، والمعتاد، والمكرور، ويجفلون من كل مسار تثويري أو تجديدي، أو مختلف. وهكذا يستقبلون الأجيال الجديدة بأرواح مقموعة وقامعة، لا يمكن أن تتفتح في حضرتها موهبة، ولا تدبُّ الخطى معها إلا في المسار الخطأ.

إن الشعر بوصفه رفيقاً أبدياً للإنسان في كل الثقافات قديمها وحديثها، يتأثر بحساسية مفرطة بأحوال هذا الإنسان، وهو يعطي بلا حدود.. لكن العطاء يبقى مرهوناً بحدود هذا الإنسان وإرادته، فالشعر لا يفرض نفسه بالقوة أبداً، لا بد من حميمية في التعامل مع الشعر، وهذا الرفيق الأبدي يتجاوب معنا بلطف بالغ، نريده رفيقاً بسيطاً يقبل، نريده قوة خلاقة ومبهرة يقبل، نكتفي بقشرته الخارجية يقبل، نطمح في جوهره الداخلي العميق يقبل. وتلك العلاقة هي التي أنتجت ذلك المخزون الهائل والمتنوع والمتفاوت من النصوص، فالشعر يعطي للقروية البسيطة التي تبكي فقيداً، كما يعطي للعامل الذي يكد طوال يومه، وكذلك يعطي للمبدع المحترف، والنفوس التي تذهب إليه بإرادة قوية، وطموح لا حدود له.

تلك العلاقة التاريخية بين الشعر والإنسان، لا تجعل الشاعر منفصلا عن واقعه خاصة في عالمنا العربي، بما يحوي من قمع وفساد وعبودية وكذب وتخلف.. إلى آخره! فأمراضنا المستعصية تسطع عبر مرآته، وتفرض علينا توجهات معينة. فالشاعر الحقيقي في عالمنا العربي محكوم عليه بالمعاناة طول الوقت من مشاكل كثيرة، تهدر طاقته، وتعرقل مشروعه الإبداعي، وتأخذه إلى تفريعات جانبية لها مردودها السلبي والمميت أحيانا، كما أن الشعر في ظل هذا المناخ يترسخ بوصفه وسيلة للصراخ، لا للكشف، مصبا للشكوى، لا رفيقا لرحلة عظيمة! ملاذا للهرب من الموت، لا للإقبال على الحياة! ثغرة للتنفس لا فضاءً للابتكار والتجديد.

مَن يسعى لقتل الشعر العربي؟!

الشاعر أ.د / عبدالله بن أحمد الفَيْفي

(أستاذ النقد الأدبي الحديث

بجامعة الملك سعود في الرياض)

ليس من فراغٍ أن يسعى الساعون إلى قتل الشِّعر العربي، وتحييد الفنّ العربي، لكي لا يهيّجا العواطف، فيُقِضّا المضاجع. وإن لم يمكن قتل الشِّعر، باسم الرواية على سبيل المثال، أو تحييد الفنّ، باسم الموضوعيّة، فليُصرفا إلى التوافه من الأغراض، وإلى سراديب العبث، والغموض الفارغ، واللامعقول واللاشيء، باسم الحداثة وتجلّياتها الماورائيّة. مثل ذلك كان يُعَدّ من أحاديث الجنون، وثوثاته قديمًا. حتى إن ما نُسب في نوادر الأعراب لبعض الحمقى والمجانين، ليبدو في غاية الطرافة والشِّعريّة اليوم، قياسًا إلى بعض الشِّعر العربي الحديث. وذلك من قبيل ما نُسب إلى الشاعر (أبي حية النميري المجنون) ، الذي قال مرةً: «عَنّ لي ظبيٌ يومًا فرميته، فراغ عن سهمي، فعارضه السهم، ثم راغ، فعارضه السهم، فما يزال والله يروغ ويعارضه حتى صرعه ببعض الجبانات!»، وقال يومًا: «رميت، والله، ظبية، فلمّا نفذ سهمي عن



أ.د. عبدالله بن أحمد الفَيْفي

القوس، ذكرتُ بالطيبة حبيبةً لي، فعدوتُ خلف السهم، حتى قبضتُ على قذذه قبل أن يدركها!، وهو المشهور بسيفه، شهرة (دونكيشوت)، أو أشهر! فهذا النمط من الجنون والكذب لا يخلو من فنٍّ وطرافة. وهكذا كانت فنون الجنون جميلة مدهشة.

أمّا بعض جنون ما يكتب اليوم باسم الحداثة الشّعريّة، فيتدنّى عن ذلك كثيرًا، ليبدو عَتَهًا خالصًا، لا أقلّ، وربما أكثر. فعن أي شِعر عربيّ حديث مؤثّر نتحدّث؟!

صحيح أن البلاغة العربية القديمة كانت تبالغ في الشكلانيّة كثيرًا.. وصحيح أنها كانت تبالغ أحيانًا في تطلّب الوضوح والتناسب، وتبني مقاييسها على نماذج محدودة زمانًا ومكانًا وثقافة وحتى عَددًا؛ غير أنها تظل في رؤيتها إجمالًا تتطلّب الأثر الفاعل للشّعر في الفكر والنفوس والحياة؛ لأن التعبير البلاغي، مهما ركب المجاز، ليس بخبط عشواء، ولا بهذيان مخبول، ولو باسم المجاز والشّعر.

ويضدّ ذلك يسعى آخرون ليُسهم الوضوح والمباشرة في تضليل الوعي العام وتخدير الضمائر. والنصّ الأدبي يَفسد حين يغدو محض مطيّة أيديولوجيّة، يرفع شعاراتها قبل شِعريّتها، فيَسقط عندئذ تحت سنابك الركض مضرّجًا بالكلمات الميتة. ذلك أن للنص روحه، كائنة ما كانت تلك الروح، فإن كانت قد حلّت روح الأيديولوجيا في النصّ حلولًا طبيعيًّا، كان النصّ نصًّا سويًّا، وإلا قتلته، محاولة الإحلال القسري أو المدّعَى، فلا النصّ كان ها هنا ولا الأيديولوجيا.

خلاصة القول: إن الشّعر العربي- وعلى الرغم من أمراضه المشار إليها- ما انفكّ زاهرًا بأصواته الأصيلة، والمجدِّدة. غير أن هناك في الواقع العربي كواتم صوتٍ كثيرة، تعليميّة، وإعلاميّة، وسياسيّة. إن الأمر بكليّته- وفي أي زمان ومكان- متعلق بـ(اللغة) و(الحريّة). وشأن اللغة العربيّة في العالم العربي لا يحتاج إلى تشريح؛ فهو أعرى من أن يوصف، وحال الحريّة معلوم كذلك، فهي في أحطّ دَرَك، منذ العصر الجاهلي إلى اليوم.

ومن ثَمّ، فإن تراجع الصوت الشّعري العربي، المسموع والمؤثّر، تحصيل حاصل لحالة حضاريّة وثقافيّة عامّة.

جهد التجربة وهويّتها المتحوّلة

(عبد اللطيف الوراري/ شاعر وناقد مغربي)

أعتقد أنّ أجمل ما كُتِبَ به اللغة العربية، بقدر ما أبدع فيها وفتحها على إمكاناتٍ من الخلق لا تنتهي، هو الشِّعر. إنّنا، ونحنُ نعود إلى تراثنا الشعري، نكتشف مدى القيمة اللغوية والجمالية والثقافية التي صارت للغتنا بفضل الشعر الذي يقدم إلينا، بطراوته وثرائه وعمقه، من مئات السنين، ولا يزال.



عبداللطيف الوراري

وإذا كان القرآن قد حفظ اللغة العربية وأولاها بالمنزلة المحظيّة بين اللغات، فإنّ الشعر كان ما يني يبتكرها ويصلها بالمعيوش والعابر والدنيوي الذي يعبره الإنسان في كُلّ حالاته. وعلى الرغم من الحملات المغرضة التي كانت تتعرّضُ لها لغتنا العربية، فتتّهمها بالعجز والتقصير عن مواكبة العصر الحديث، فإنّ الأدباء من أُمّتنا كانوا يواجهونها بما يبدعون بها من شعر ونثر. ولا يهمّ، بعد ذلك، إن كان الشعر أو الرواية ديوان العرب.

في وقتنا الحاضر، ومع غياب الدعم الذي يمكن أن تسهم به المؤسّسة الثقافية العربية عن طريق نشره وتداوله وترجمته، فإنّ الشعر العربي لا يزال يحظى باهتمام مُتنامٍ، ولا يزال يمارس جاذبيّته على قطاعٍ مُهمٍّ من القُرّاء حتى من داخل مواقع التواصل الاجتماعي. إنّ شعرنا والحداثة التي يختطُّها منذ عقود يُضاهي شعر لُغاتٍ أخرى، بل نجده يختصّ بينها بقيم ومواضعات (موسيقية، شكلية، جمالية..) ليست فيها. ومن نافل القول، أن نشير إلى أنّه في كل منعطف تاريخي أو مرحلة يمرّ بها الشعر إلّا عاش أزمة على صُعُد ما، لكنّه سرعان ما يخرج منها مُعافى وأكثر قوّةً وتجديداً. وإذا بدا أنّ هناك أزمةً في شعرنا المعاصر فهي طبيعية، وإن وجدتُها - لطبيعة المرحلة أو إبستيمي العصر - أزمةً مُركّبة يتداخل فيها ما هو فنّي بما هو ثقافي ووجودي، وتحتاج منّا، كمبدعين ودارسين، إلى لحظة تأمّل لوضعها في سياقها الشامل.

بالنسبة لي، وقياساً إلى تجربتي الشعرية، فإنّ التراث الشعري العربي بوجوهه وعلاماته المضيئة كان دائماً أحد مصادري الأساسية، إذ تنوّعت قراءاتي للشعر العربي بين القديم والحديث، فتعرّفتُ على سحر الجاهلية، وحداثات المتنبي وأبي تمام والمعري العابرة للأزمنة، ورقّة شعراء الغزل في نسج رؤاهم للحبّ ومعاناته، وسخاء الطبيعة عند الأندلسيّين، وفيما بعد - تحت شعورٍ بالعجب والصدمة- تعرّفتُ على حيويّة الشعر الحر في عبوره إلى العصر وحداثته ونهوضه بمتخيّل شعريٍ جديد، وعلى مفارقات محمد الماغوط، وأمل دنقل، ومظفر النواب، وأحمد مطر الساخرة في نقد الواقع السياسي والاجتماعي، وعلى شعريّات محمود درويش وسعدي يوسف وأدونيس وعلي جعفر العلاق وقاسم حداد وأنسي الحاج وسركون بولص ومحمد بنطلحة، العابرة بالشعر العربي إلى الكونيّ.

إنّي أنتمي إلى شجرة الشعرية العربية الأعرض التي تضرب بأطنابها في عمق التاريخ واللغة والثقافة، وما طفقت تجدّد آليات عملها الكتابي والتخييلي، وتأويلها الخصيب للذات والعالم. أنتمي إلى النصوص التي تحمي العمق، وتتطور داخل جماليات اللغة العربية. وترتيباً عليه، أزعم أن الصفحة التي أخط فيها شعري هي، سلفاً، مُسوَّدة بحبر أولئك الشعراء

الذين أتقاسم معهم ميراثاً عظيماً من الحبّ والمسؤولية. وداخل هذا الانتماء الأعرض، أتعلم كيف أنصت إلى ثقافتي المحليّة التي هي جزء أساس ومختلف داخل الثقافة العربية الإسلامية. ومن ثقافتي المغربية، بجذورها الأمازيغية والإفريقية والأندلسية، أسترفد مُتخيّلاً مُصطخباً يَدلّني على التنوّع الذي يُلهمنا الحياة التي نتوجّه إليها، ويجعل الهويّة التي نتكلّمها أو نحلم بالعبور إليها دائمة التحوّل.

من هنا، يهمّني التعبير عن روحيّة الشعر المغربي وروائحه وأمكنته ورموزه وهواجسه. ولا أفهم شاعراً مغربياً لا يعبّر عن ذلك، ويظلّ مغترباً في الأشباح بحثاً عن حداثةٍ مزعومة أو خلاصٍ كاذب.

وإذاً، فلعلّ الروافد التي شكّلت تلك أقانيم تجربتي، فيما أرى، متنوّعة ومتجاذبة، منها ما يعود إلى التراث الشعري، ومنها ما يمتح من اتّجاهات الشعر الحديث والمعاصر، ومنها ما يرد عليّ من مشاهدات للحياة اليومية وتجاربي فيها. لكن لا معنى أن يظلّ شعرك بمعزل عن الشعر الآخر، الفرنسي أو المترجم؛ فقد أفادني ذلك ومنح قيمةً مُضافة جديدة للّغة التي أبدع بها وعبرها؛ بل كشف لي معنى أن يصير الآخر «محكّاً»، فلمّا نترجم أو نقرأ الآخر مترجَماً، فكأنّنا نلقي بين اللغتين أو بين الشعرين تفاهماً هو من العمق والانسجام؛ ما يجعل الفجوة تتعثّر بمعنى جديد، وأفق جديد. وعلى العموم، فإنّ تجربتي الشعرية لا تألو جهداً للتعلّم والإصغاء كيما تبقى متيقّظة وحيّة ومنتمية إلى زمنها، وتبقى هويتّها متحوّلةً باستمرار.



جمال الموساوي/شاعر وإعلامي من المغرب

جمال الموساوي / شاعر وإعلامي من المغرب

أتساءل أين تتجلى علامات الأزمة في الشعر المكتوب بالعربية؟ الساحة تعجّ وتضجّ بالشعراء، والمجلات تنشر قصائدهم، ناهيك عما تحمله المواقع الإلكترونية في كل لحظة، كأنها أنهار متدفقة أو بحار متلاطمة.

حسناً، هل يتعلق الأمر بأزمة قراءة؟ ربما، بيد أن هذه الأزمة لا تخص الشعر تحديداً، وإنما الكتاب الإبداعي بشكل عام. قليلون أولئك الذين تمكنوا في العالم العربي من بيع «آلاف» النسخ من كتبهم.. أو بالأحرى من بعض كتبهم الإبداعية. ثم إن أزمة القراءة قضية تتداخل فيها أسباب عدة أدناها الاهتمام بسفاسف الأمور من قبل بعضنا، وأعلاها غياب ما يحفز على فعل القراءة بدءاً بمناهج التعليم التي لا تترك فرصة للطفل كي يتنفس، فما بالك بالنظر في كتاب هو في النهاية ترف بعيد.. أقصد النظر.

آه نعم، يتعلق الأمر قبل هذا وذاك بجودة ما يكتب وما ينشر. لكن الجودة نسبية، فأنا أنظر إليها من موقعي، وأحاكم النصوص انطلاقاً من قناعات لا يمكنها أن تشكل «رأياً عاماً» شعرياً أم نقدياً. إن هذا لا يقتضي الانتماء لمدرسة أو تيار؛ فهو نابع من انطباعات وأحكام شخصية،

أو كما نقول هو قضية ذوق؛ طبعا مع احترام مبادئ الحدّ الفني الأدنى.

أما عن مسألة الرضى على ما أكتب، فلن أدّعي أن هذا ليس من شأني بل من شأن القارئ والناقد. فإذا سلمنا بوجود أزمة قراءة وأزمة نقد، فمعناه أن لا أحد يمكن أن يعبّر عن قيمة ما أكتب، ومن ثمّ سأكون مجبرا بالتأكيد على أن الرضى موت. وإني إذا أردت الإبقاء على الشاعر حيا في داخلي، فعليّ أن أضع نصب عيني أن النص «الكامل» لن أكتبه يوما ما، وأن كل قصيدة جديدة أكتبها ما هي إلا تمرين فقط!

في هذا السياق، ليس ضروريا أن أعمد إلى محو كل ما كتبته أو قرأته، كي أفسح المجال لشيء جديد. لديّ قناعة بأن كل ما ننتجه هو تنويعات على وجه الحياة. قد أراه اليوم على غير ما رأيته أمس.. وهكذا. والكتابة هي دائما مستمدة؛ مما رسَب في الأعماق من قراءاتنا ومن تجاربنا في الحياة. لا أرى كتابة من غير هذين النبعين؛ منهما نصنع تصوراتنا للواقع وللحلم؛ للحاضر والمستقبل. لهذا لا يبدو المحو فكرة جيدة، ولا قابلة للتحقيق.

في المقابل، ينبغي أن يتضافر النبعان مع انشغال شخصي ضروري، لكل شاعر، على كل حال. يتمثل هذا الانشغال في البحث المتواصل عن موطئ لم تطأه قدم. الإبداع في صياغة المعنى من زاوية لم يلج إليها أحد بعد. وهذا أمر قليلون من يصلون إليه. لأنه يتطلب تكريس الحياة لمشروع وفق خطاطة بأهداف وآليات وإمكانات، وهو أمر غير متاح للأغلبية من الشعراء في المنطقة التي ننتمي إليها، بالنظر إلى ظروف الحياة التاريخية والاجتماعية وحتى النفسية. لهذا، يصير الشعر مكابدة وعناء متواصلا في مجابهة اليومي البغيض، بكل ما فيه من صغائر الأمور.

الشعر بهذا الشكل، مخاض لولادة مستعصية نتيجة المكونات «البيولوجية» المتعددة للمولود، إذ تتمازج فيه بقايا تراثية (كل ما مر واستقر في ثنايا الأمس قريبا أو بعيدا كان، هو تراث) بلغة العصر، بإكراهات الحياة وبالضرورات الوجودية بشكل عام وشامل. ولعل بعض أزمة الشعر موجود في هذا الجانب تحديدا في ما يتعلق بالتلقي والقراءة. يدّعي الشاعر أنه في حاجة إلى نوع من القارئ العالم أو المحيط بمكونات مولوده، حتى يتمكن من التواصل معه. بصيغة ما «لماذا لا تفهمون ما أقول»!

عندما ترى كثرة الشعراء، تتساءل أين الشعر؟ تفتح الإنترنت وتبحر، تتقاذفك بحار لا متناهية من القصائد والخواطر والكتابات المتنوعة. تقول هذا جواب سريع على سؤال يحتاج إلى الكثير من التأمل والتدبّر. لكن هل هذا هو الشعر فعلا؟ قد يكون. ولكن مَن أكون حتى أطرح هذا السؤال؟

أتذكر عندما شرعت في اقتراف الكلمات قبل بضعة وعشرين عاما. كان الإحساس رائعا وأنا أقرأ ما جادت به تلك البدايات منشورا في هذه الجريدة أو تلك المجلة. هذا الإحساس لا أريد له أن يموت. هو يجعلني أشعر بما يشعر به كل هؤلاء الذين يستهويهم أن يروا أسماءهم وصورهم في هذا الموقع أو ذاك. فقد نابت عن صفحات الشباب التي احتضنت شغبنا الأول، وهي متنفسهم كما كانت تلك الصفحات متنفسنا. هذا يقودني إلى القول إن الشاعر في بداية دائمة، وأن ما يمكن أن نحكم عليه بالرداءة حاليا قد يحوّل أصحابه مع الوقت إلى شعراء «مسؤولين» يقدّرون معنى الاكتواء بنار الحروف... وما دامت هذه الفرضية موجودة، أي البداية الدائمة، فإني أرى أن أزمة الشعر، في ذاته، ليست واردة.. لكنها ربما خارجه!



لا الناهية.. ولا المتلقي

■ عقل بن مناور الضميري*

لن تقرأ نوماً في النحو، إنه في الإملاء إملاءٌ قاسٍ لا يبحث عن الإجادة في الكتابة، بل إجادة الاتباع.

لاءُ القُرطي ولاءُ المدرس لاءُ البلدية، ولاء المدير، لاءُ الأب، ولاءُ الجار.. لاءاتٌ بلا نهاية أبداً.

لاءاتٌ من كل الجهات وفي كل الأوقات. لاءٌ كبيرة حاضرةٌ دوماً للحقوق والآمال، للأفعال والأقوال؛ بل تتوغل عمقاً وفجوراً لتصطع حتى النيات.

لا تسافر إلى.. لا تضحك مع.. لا تخالط هؤلاء.. لا تحب أولئك.. لا تقرأ لهذا أو ذاك، لا تعمل كذا وكذا... وستعرف بعد استقلالك المالي أن أشد اللاءات وحشيةً لا تتكلم..!! وأكبرها خطراً لا تسأل..!!

هذه اللاءُ الناهية بوابةُ استلاب الحرية، ورأسُ الوصاية لما بعد البلوغ وحتى المغيب.

كم رُميَت بوجه مُبادر؟! كم من إبداع طُمِست؟! كم من عبوديةٍ لغير الله فرضت هذه اللاء اللعينة؟!

ولأن الجزاء من جنس العمل، فما يُحجّم تلك الناهية غير لاء المتلقي.

ألم يحن وقت رفع الصوت بها على كل أفواهنا؟! على كل معتدٍ على حقوقك وشؤونك وعالمك واهتماماتك؟!

لاءُ المتلقي هي سرُّ الغرب والشرق الذي وصل.

فما بين اللاءين مسافة تقاس بها القدرة على مكافحة الفساد وأشياء أخرى يعرفها الباغي والمحروم..

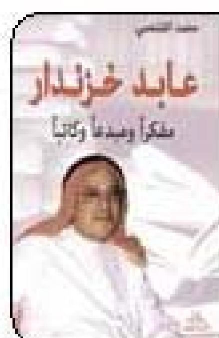
---

* كاتب من السعودية

الكتاب : عابد خزندار.. مفكراً ومبدعاً وكاتباً

المؤلف : محمد القشعمي

الناشر : دار الانتشار العربي - ٢٠١٣م



صدر الكتاب في ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وحمل عنوان: «عابد خزندار.. مفكراً ومبدعاً وكاتباً» والذي أهداه المؤلف القشعمي إلى محبي عابد خزندار وإلى من أحب وطنه.. وسار على دربه.

يحكي في مطلع مقدمته كيف تعرف بالناقد الخزندار منذ عام (١٩٩٧م)، بصحبة أستاذه الشيخ عبدالكريم الجهيمان، ثم توالت اللقاءات بعد ذلك في جدة.

انطوى الكتاب على عدة فصول، كان من أبرزها مقتطفات من حياته، ثم يعرج القشعمي إلى بعض اللقاءات الصحفية والحوارات الجريئة، إضافة إلى كتابات الخزندار عن والده وعن بعض الأدباء الذين انتقلوا إلى الدار الآخرة كـ: عبدالكريم الجهيمان، وعبدالعزيز مشري، وعبدالله الجفري وعبدالله عبدالجبار، وناصر المنقور، وحسن نصيف.. إلى جانب طائفة من الكلمات الرقيقة التي كتبها عدد من الأدباء والمثقفين عن الناقد عابد خزندار في أكثر من محفل أدبي، كما يعقد المؤلف فصلاً عن مشروعه التنويري؛ فيورد نصوصاً من كتاباته في زاويته «نثار» ليورد فيها أبرز الأفكار التي طرحها عبر هذه الزاوية.

وفي خاتمة الكتاب، يتحدث القشعمي عن زوجة الخزندار السيدة شمس الحسيني - رحمها الله - ودورها الأدبي والصحفي.

كتاب قيّم يستحق القراءة وقد ضرب فيه مؤلفه مثلاً في الوفاء للرواد والمفكرين بالكتابة عنهم أحياء، وتقديمهم للأجيال التي ربما في سرعة الحياة التي نعيشها قد لا يعرفون الكثير عن الرواد.

الكتاب : رعشات من رصيف الانتظار (شعر)

المؤلف : بوشعيب عطران

الناشر : دار العالمية للنشر - الدار البيضاء



صدرت مؤخرا للشاعر المغربي بوشعيب عطران مجموعة شعرية بعنوان: «رعشات من رصيف الانتظار»، تقع المجموعة في (٧٢) صفحة من الحجم المتوسط، تتصدر غلافها لوحة تشكيلية للفنان المغربي عبدالكريم الأزهر.

تضم المجموعة الشعرية عشر شذرات بعنوان: «صرخات.. من زمن الخيبة» و(٣٧) قصيدة شعرية منها: «تراتيم أحلام.. منفية»، «إشراقات شاردة»، «أشواق مغتربة»، «نزوة بعين حالمة»، «لسعات الأيام»، «شظايا ذاكرة تأبى الانشطار»، «عاشقة الليل»، «على حافة الانفصام»، «شطحات القلب»، «تدوينة القصيدة»..

وقد جاء في ظهر الغلاف مقطع من قصيدة «تدوينة القصيدة»:

«ذات وهج
قضمت حزمة ضوء
تفتقت أكمام الشعر!
حروفا دافئة لاهبة
لأنحت..
من منحدرات الحنين
ووخزات السنين
تيه ظل الفراغ
وضباب العذاب..»

وتعتبر المجموعة الشعرية «رعشات من رصيف الانتظار» الإصدار الأول للكاتب المغربي بوشعيب عطران.

الكتاب : عتق – رواية.

المؤلف : إبراهيم مضواح الألمعي.

الناشر : جداول للنشر والتوزيع - لبنان



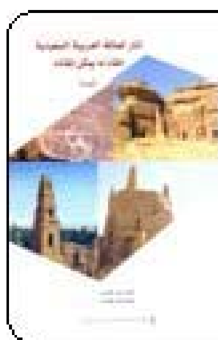
صدرت حديثاً رواية «عتق» للأديب إبراهيم مضواح الألمعي، وذلك في طباعة فاخرة، وعدد صفحات (٧٢)، بقياس (١٤×٢١).

قال المؤلف في مقدمته: ها هي لحظة المواجهة قد حانتْ، وها هي كذباتي تُخجلني الآن، تحاصرني، يؤنّبني ضميري، ولكن ماذا كان عليّ أن أفعل؟! لقد ضحّيت بالكثير من حياتي ومن حرّيتي. لماذا تستكثرُ عليّ الدنيا أن أعيش حياتي بمنأىً عن هذه القيود التي تُكبّلني، تكاد تحبس أنفاسي؟! كيف أرتشفُ من رحيق الحياة وأنا مشدودٌ إلى هذا المكان؟! قيودٌ وُجِدَتْ معي، وأخرى خلقتُها بنفسي، وأخرى يحيطني بها الناس الذين يفرضون عليّ كيف أعيش!

الكتاب : آثار المملكة العربية السعودية – إنقاذ ما يمكن إنقاذه (ندوة).

تحرير : هيئة النشر.

الناشر : مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية ٢٠١٣م



يقع الكتاب في مائتي صفحة، تتضمن محتويات الندوة التي أقيمت في مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية عام (٢٠١٢م) وموضوعها أعلاه.. وقد هدفت الندوة إلى تسليط الضوء على آثار المملكة العربية السعودية، وبيان وضعها الحالي، وإبراز أهمية العناية بها، وحمايتها من مختلف أنواع التعديات، سواء بالتخريب أو النهب أو التجارة أو الإهمال، وإبراز الدور الذي يمكن أن تسهم فيه في تنمية السياحة، واقتراح تصور عام لإثارة الاهتمام العام بالآثار الوطنية وضرورة المحافظة عليها، كونها تمثل جزءاً من التاريخ الإنساني والحضاري، وتمثل أبعاداً اقتصادية في الدولة، والتأكيد على الدور الإعلامي في هذا المجال. وقد قدمت في هذه الندوة اثنتي عشرة ورقة عمل ضمن المحاور الآتية:

- الوضع الحالي للمناطق الأثرية في المملكة.
- الاهتمام بالآثار؛ الأبعاد الاجتماعية، والثقافية، والحضارية، والاقتصادية.
- جهود الهيئة العامة للسياحة والآثار.
- الرؤية المستقبلية للعناية بالآثار.
- الخطوات المأمولة من الدولة والمجتمع والمواطن.
- نتائج استرداد الآثار.

وتأمل هيئة النشر أن يسهم هذا الإصدار في خدمة الآثار في المملكة العربية السعودية، لما تمثله للمجتمع والوطن من بعد حضاري وإنساني وثقافي.